ستيفان زفايج

سر ملتهب

رواية

تقديم وتحرير

مصطفى فؤاد

الكتاب: سر ملتهب (رواية)

الكاتب: ستيفان زفايج

تقديم وتحرير: مصطفى فؤاد

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

زفايج ، ستيفان

سر ملتهب (رواية)/ ستيفان زفايج, تقديم وتحرير: مصطفى فؤاد
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٤٦٥ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٦٥٨ / ٢٠٢٢

سر ملتهب

(رواية)





مقدمة

تعد رواية "سر ملتهب" واحدة من الروايات القصيرة التي أبدعها ستيفان زفايج، وقد صدرت ترجمات مختلفة للرواية تحت عنوان "السر الدفين"، "جنون الحب"، "سر حارق" في حين أن زفايج اختار العنوان الأصلي لروايته وهو "سر ملتهب" باعتبار البطولة في الرواية للصبي الذي اكتشف سر العلاقة بين والدته والبارون.

الرواية ترسم صورة كل من المرأة والحب في أدب ستيفان زفايج، والحب موضوع دائم وأبدي في كل الآداب، شعراً ونثراً، قديماً وحديثاً، وبكل اللغات. فأي أدب مهما كان تاريخه وثقافته لا يخلو من الكتابة عن الحب، لكن ما يميز أدب عن آخر هو مدى انفتاح المجتمع ومدى حرية التعبير فيه، وما يميز كاتب عن آخر يتمثل في طريقة كتابته.

والفن الروائي عموما لا يهتم بتقديم تفسير للحب، بل يقدمه كما هو، فيتركز هدف الروائي على درجة العمق والاتساع والتأثير والسبب والنتيجة وإلى أين سيؤدي، وإظهار التأثير الذي تحدثه علاقة الحب التي جمعت بين أبطال الرواية وكيف انتهت كل علاقة أو بمعنى أصح إلى أين اتجهت هذه

العلاقة، ومن أبرع الكُتّاب في هذا الشأن الكاتب النمساوي

الشهير ستيفان زفايج.

وفي رواياته دائما ما تقع المرأة في رواياته في الخطيئة، فهل يعني ذلك إدانةً ما لها؟

بالطبع لا، وعن ذلك يقول زفايج: "كثيرًا ما تقع المرأة في حياتها ضحية لعوامل مبهمة، أقوى من إرادتها وخصالها، فلا يمكن الحكم على هذه المرأة بالفجور.. ثم أوضحتُ أن اللجوء إلى الأساليب الملتوية، وطمس الحقائق، إنما نغرر به أنفسنا، حتى لا نستشعر بشاعة غرائزنا ".

وفي إحدى رواياته قال عن واحدة من أولئك النسوة: "ماذا في أن تمرّ بالمرء لحظة من لحظات الطيش.. مرةً واحدة في هذا العمر المديد؟! ولكن أين المفر من ذلك الرقيب الغامض.. الضمير؟".

وكان زفايج يرسم ملامح أعماق النفس البشرية، ويكشف عن أدق خفاياها وأعنف انفعالاتها كالحب والكراهية والخوف والشغف، مما دفع البعض لمقارنة رواياته بدراسات فرويد في علم النفس. وقد تُرجمت أعماله إلى أكثر مــن خمسين لغة، وقد أطلق عليه "دوستويفسكي النمساوي".

سيرة الكاتب

ولد ستيفان زفايج في مدينة فيينا في ٢٨ نوفمبر ١٨٨١، وفيها

أكمل تعليمه الجامعي، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة، كما كتب الشعر وفازت قصائده بجائزة "بوير نفليد" للشعر، واشتهر بترجماته لبعض الأعمال الأدبية الرائدة، خصوصًا من الأدبين الفرنسي والروسي، كما أصدر كتباً عن كبار الأدباء في العالم، وفي ذات الوقت كتب العشرات من القصص والروايات والمسرحيات.

وكان زفايج قد سافر إلى باريس في عام ١٩٠٤ وعاش فيها لفترة دفعته لأن يترجم أعمال بودلير ورامبو ورومان رولان، وغيرهم من كبار الكُتّاب الفرنسيين، وقد قال عنه الروائي الفرنسي جول رومانس: "زفايج هو أحد المفكرين السبعة الأكثر عمقاً في أوروبا بأسرها"، وكان من دعاة السلام ونموذجاً للأوروبي المسالم، ولذلك كان جرحه عميقاً حينما نشبت الحرب العالمية الأولى، وهو أكثر كُتّاب جيله شهرة، ليس فقط في النمسا، بل بين كل كُتّاب أوروبا في ذلك الوقت.

وقد اضطر ستيفان زفايج للهجرة في عام ١٩٣٨، فعانى الشتات لأربعة أعوام، فهو سافر أولاً إلى بريطانيا بصحبة زوجته الأولى فردريكه، وفي عام ١٩٣٩ تزوج من سكرتيرته "لوتاه" وسافر معها إلى الولايات المتحدة التي لم يحتمل الحياة فيها لأكثر من عام، ثم سافر إلى البرازيل في ١٩٤٠، لتكون مستقره الأخير.

وهناك كتب عدداً من أعماله المهمة ومنها "لاعب الشطرنج"

(١٩٤٢)، كما قدم كتابا عن البرازيل نفسها بعنوان "البرازيل أرض المستقبل"، وهو آخر كتاب نشره زفايج في حياته، وقد صدرت بعد رحيله عدة كتب كان قد انتهى من تأليفها قبل انتحاره منها كتابه الشهير عن الروائي الفرنسي بلزاك.

وكان زفايج قد كتب مذكراته بعنوان "مذكرات أوروبي"،كما قدم سيرته الذاتية في عمل أدبي فذ منحه اسم "عالم الأمس"، وذلك في مطلع أربعينيات القرن العشرين، حين كانت الحرب العالمية الثانية في أوجها.

وقد تربع زفايج على عرش الرواية العالمية لمدة تزيد على العشرين عاماً، تحديداً الفترة ما بين عامي ١٩١١ و١٩٣٣م، وهي الفترة التي بدأت بصدور واحدة من أهم روايات زفايج وأكثرها تأثيراً، وأعني بها روايته "قلوب تحترق" التي وزعت في حينها قرابة المائة وخمسين ألف نسخة، وهو رقم كان يعد في ذلك الحين شديد الضخامة، خاصة إذا علمنا أن تلك الآلاف من النسخ تخص الطبعة الألمانية فقط، وقد ترجمت وطبعت بعد ذلك بأكثر من لغة.

ويرجع ذلك إلى أن ستيفان زفايج يصور في رواياته أدق تفاصيل النزاعات الإنسانية في مُجمل نتاجه الأدبي الذي تنوع بين القصة القصيرة والرواية وكتابة سير الشخصيات الشهيرة في الحياة الاجتماعية، وكذلك تقديم قراءات لروائع الروايات العالمية بالتحليل،

وتناول أهم الأسماء الأدبية والفكرية.

سر ملتهب

"أعلن القطار وصوله المحطة بصافرة حادة. وقفت للحظات عربات القطار السوداء تحت الضوء الفضي المنسكب، تلفظ بعض البشر وتلتقط آخرين".

هكذا تبدأ رواية زفايج القصيرة، فالقطار هو الفاعل، يصل ويعلن، وعرباته تلفظ البشر أو تلتقطهم، وكأنما لا إرادة لهم، وهذا يضعنا منذ الفقرة الأولى في مواجهة تساؤل عن كنه ودلالة ذلك القطار، وهل هو مجرد وسيلة انتقال أم كناية عن تغيرات يفرضها بقوة واقع ما بعد الحرب العالمية الأولى الذي يهز بقوة النظم الاجتماعية التي كانت راسخة قبل الحرب؟

والبارون كان واحداً من الذين لفظهم القطار، وهو نموذج متكرر في روايات زفايج، كرجل وحيد، يتفادى رفقة نفسه، يبحث دائماً عن امرأة ترافقه لبعض الوقت ثم يمضيان كل في سبيله، لذلك فهو دائم الترقب، و"تتشكل حياته ذاتياً بين هذا الترقب ومغامرة لا تنتهي"، يشعر بثقل مرور الوقت، وهو ما يصوره زفايج بوصفه لمرور ساعة واحدة على البارون الذي ينتظر امرأة مجهولة "بعد ستين دقيقة طويلة، فارغة، قلقة، لجأ إلى قاعة الطعام"، وحينما يشم الصياد الكامن فيه رائحة الفريسة، يسمع حفيف فستانها قبل أن يأتيه صوتها زاجراً الطفل

"إدجار، اصمت"، يجدها من ذلك النوع من النساء الذي يروق له، فيشرع في رسم خطته للإيقاع بها.

لم تكن الخطة سوى لعبة تحتاج إلى "شريك لا يثير سخط لاعب ورق، يحمل بطاقات اللعب دائماً بين يديه، واعيًا تمامًا لقدراته"، ويقرر أن يكون إدجار شريكه، أو فخه الذي سيوقع بالأم الحسناء، وفي الصباح التالي يكتسب صداقة إدجار ابن الثانية عشرة من العمر، فالطفل يشعر بأنه منبوذ، يشعر بحاجة للثرثرة، ويسيطر عليه النزاع بين فترتي الطفولة والرجولة المبكرة، كل شيء فيه كالعجينة التي لم يتشكل فيها رغيف بعد، لذلك يتمكن البارون من معرفة كل ما يريد معرفته خلال ساعة واحدة، فإدجار ابن وحيد لمحام بفيينا، مشغول بعمله عن أسرته، وعلاقته بزوجته ليست جيدة، يعرف بحكم خبرته كصياد أن الفريسة دانية، فهي "كانت في العمر الحرج الذي تشعر فيه المرأة بالندم على البقاء مخلصة لزوج لم تحبه قط، الوقت الذي يتيح لها ما تبقى من جمالها الذي أوشك أن يأفل الاختيار الأخير والعاجل بين الأمومة والأنوثة"، ينسج شباكه حولها على مهل، بعدما اكتسب محبة ابنها، وتتكرر نزهاتهم وجلساتهم الثلاثية إلى أن ينتهي دور الولد، وتصبح أمه شريكة في اللعبة، فتُؤثر أنوثتها، وتعمل على إبعاد الصبي، لتخرج مع البارون بمفردهما، ولما يتكرر الإبعاد ويؤيدها البارون، يدرك الطفل أن شيئًا ما تغير بينهما. ويقوده التساؤل إلى اكتشاف السر الملتهب، حينئذ وكما يصف زفايج "برز أخدود عميق بين حاجبي

الصبي، بدا أكبر سناً وهو جالس في العربة يفكر، معذبًا بهذا اللغز العظيم"، ويقوده التفكير إلى اتباع حيلة تناسب سنه، لكنها كافية لأن يكتشف السر، يقول لنفسه "ها أنا أكتشف السر، أمسك بالمفتاح الذي يفتح جميع الأبواب، لن أتعامل كطفل بعد الآن مع أي شيء يتم إخفاؤه".

تقول الرواية: "الصبي الذي عاد إلى الفندق لم يكن هو الطفل الذي غادره"، فعزم على أن يخدع أمه والبارون، وأن يتلصص عليهما، فرآهما والبارون يحاول استدراج الأم إلى غرفته، فيندفع ناحيتهما وينهال على البارون ضرباً بقبضتيه الصغيرتين، لم يمتد الصراع لأكثر من دقيقة، وفي الصباح يسأل نفسه إن كان ما حدث حلماً سيئاً، ويرفض طلب أمه بأن يعتذر للبارون؟ وحينما تصفعه يدفعها ويجري باتجاه محطة القطار، وحينما يسأله بائع التذاكر: تذكرة كاملة أم نصف؟، يتلعثم قائلًا: تذكرة كاملة، فكأنه الآن لم يعد طفلاً يسافر بنصف تذكرة.

وفي القطار يمضي ساعة كاملة من الوحدة قبل أن يصل إلى بادن، يتعلم في هذه الساعة الكثير، تقول الرواية "نظر من النافذة بعينين مختلفتين، بدا له حينها أنه يطالع الحقيقة، الحجاب الذي رفع عن الأشياء فكشف له جوهرها".

وفي البيت يتحمل لوم أبيه لأنه هرب من أمه، يطالبه بذكر

السبب، والطفل الذي أصبح رجلاً يدرك في ملامح الأم توسلاً بألا يكشف السر، فمصيرها متعلق بما سيقول، لذا يحتفظ بالسر مبرراً هربه بالخجل من ذاته بسبب عطف أمه، والأم تشعر بالامتنان فأغدقت على الابن حباً كان يفتقده، فحمل شعورًا بالعرفان حتى تجاه البارون، لأنه هو الذي فتح أمامه الباب على ذلك العالم الفسيح من المشاعر الباذخة.

مصطفى فؤاد

الفصل الأول

تهادى القطار حينما اقترب من سيمرنج، ذلك المصيف الجبلي لمدينة فيينا والذي يقع على ربوة منبسطة خلعت عليه طابعًا خاصًّا من السحر والجمال، وكان القطار يرسل صفيره معلنًا قرب الوصول، وإن هي إلا دقيقة حتى كان القطار قد استقر بعرباته الداكنة على رصيف المحطة، وقد أضفت السماء لونًا فضيًّا على الكون، وراح المسافرون يتدافعون ويتزاحمون في صعود وهبوط، وقد علت أصواتهم في صخب مثير، حتى إذا حان الوقت لكي يستأنف القطار مسيره، انبعث صفيره ثانية ثم تحرك وقد جذب خلفه العربات تباعًا، فراحت ترسل ذلك الصوت المتتالي. وما هي إلا لحظة حتى غاب من مرأى العين، إذ كان قد دلف إلى النفق، ولم يعد هناك أثر لجلبة أو ضوضاء، وران الهدوء على المكان وصفا جوه بعد أن انجاب عنه الدخان.

وكان ممن هبطوا من القطار، شاب جذب إليه الأنظار بأناقته ورشاقة مشيته، بادر إلى عربة تقله إلى الفندق، وراح الجوادان يجران العربة على مهل ويصعدان بها الطريق الجبلي. كان ذلك في فصل الربيع، والنسيم ينعش النفوس، وقد تخللت السماء سحب بيضاء، تلك التي لا ترى إلا في ذلك الفصل من السنة، وقد راحت تتسابق

وتتلاحق بعضها في إثر بعض، وكأنها أسراب من الحمائم المتدافعة في صفحة السماء الزرقاء، ولا تلبث أن تحتجب عن الأعين خلف الجبال الشاهقة.

وإنها لتتدافع ثم تفترق متجمعة حينًا ومتفرقة حينًا آخر، وأخيرًا تحط الرحال فوق قمم التلال فتتوجها بهالات بيضاء، كأنها نتف من القطن المنقوش، وزمجرت الرياح في عنف، فتراقصت أمامها الأشجار التي كانت قطرات المطر لا تزال عالقة بها فراحت حباته تتناثر وكأنها فصوص براقة من البللور، وأخذ عبير الجليد يشيع في الجو لفحات من النسيم عليلة يستنشقها الإنسان فتنعشه وإن كانت لاذعة البرودة في الوقت نفسه، وبالجملة كان الكون بأرضه وهوائه وسمائه دائب الحركة في نشاط مستمر، وإذ وصل الجوادان إلى نهاية الطريق الصاعد انطلقا يجريان في سهولة وخفة يطرق الأسماع وقع سنابكهما. وعني الشاب حين وصل إلى الفندق بتصفح سجل أسماء النزلاء، وإذ فرغ من ذلك استشعر خيبة أمل كبير وتجهم وجهه وراح يتساءل فيما بينه وبين نفسه وقد برم بنفسه وتملكه قلق مرير:

– لماذا جئت إذن؟ إن وجودي هنا وحيدًا دون صحبة أو متعة لأشد وطأة على النفس من ممارسة العمل، ولعلي لم أتخير الوقت الملائم لحضوري. إن سوء الحظ يلازمني دائمًا فيما أهيئه لنفسي من فرص الترفيه. وجميع النزلاء غرباء عني، ولو كان من بينهم بعض

النساء لكان ذلك مبعثًا لتسلية أو لهو أو استمتاع حتى في أبسط الصور وأكثرها براءة، لكيلا تنقضي تلك الأيام السبعة في وحشة موحشة ووحدة ثقيلة على النفس.

كان ذلك الشاب بارونًا من نبلاء النمسا، حظي بمركز مرموق في أحد المناصب الحكومية. فقد كان موظفًا كبيرًا في إحدى الوزارات، وقد حفزه على أخذ هذه الإجازة أن زملاءه جميعا قد انتهزوا فرصة ذلك الفصل البديع، فصل الربيع، فحصلوا على إجازاتهم. فلم يشأ أن يشذ عنهم، وأن يتخلى عن حق له، ورغم أنه كان ينزع إلى الهدوء، فإنه كان اجتماعيًّا بالسليقة. ولهذا كان محبوبًا في كافة المجتمعات، وله فيها مركز مرموق، وكان يضيق بالعزلة ويبرم بالوحدة فكان يتحاشى ذلك قدر استطاعته، فلم تكن به حاجة إلى أن يستزيد من معرفة نفسه، بل كانت تلح عليه الرغبة في الاندماج بالناس والاختلاط بهم، لكي يتسع أفق مداركه، ولكي يشبع نزوات نفسه ليشيع الدفء في قلبه. وكان يعتقد أنه لو جنح إلى العزلة لصار تافهًا، وفقد – اجتماعيًّا– كيانه وحيويته!

ولم يكن بردهة الفندق أحد، فراح يذرعها في ضجر وضيق واستياء، وأخذ يتناول الصحف واحدة بعد واحدة يتطلع إليها دون أن يقرأ إحداها، أو يتسلى بالعزف على "البيانو" في قاعة الجلوس فيعالج أحد الألحان في غير مهارة، إلى أن ضاق بنفسه فاستلقى على

مقعد في أحد الأركان في ضجر وبرم، وراح يتأمل الظلمة التي أخذت تخيم على المكان والضباب الذي يتخلل الأشجار تنفثه في شكل بخار وردي. فمر به الوقت في ملل، وقد أرهف حسه وتوترت أعصابه، فيمم شطر قاعة الطعام ودلف إليها.

وكان الكثير من الموائد لا يزال شاغرًا، فقد انتشر أفراد قلائل على بعض الموائد. فأجال البصر في نظرة خاطفة، دون جدوى، فلم يكن يعرف أحدًا من الجالسين، إلا شخصًا واحدًا، انتحى ركنًا قصيًّا وحيَّاه فرد التحية في غير مبالاة. عرفه مصادفة، فعرف فيه أنه من أولئك الذين يسرفون في إرضاء مزاجهم، ولم يطالعه وجه امرأة واحدة يمكن أن يأمل في أن تكون له معها مغامرة ولو عابرة، فاستبد به الضيق.

وكان البارون يحظى بقسط وافر من وسامة الوجه، حتى لتجعله هذه الوسامة قبلة أنظار النساء ومطمعًا للكثيرات منهن والاندماج في مغامرات غرامية كثيرة، وقد أوتي موهبة اللباقة فكان ينجح في كل مغامرة، وكان ممن لا يرتج عليهم في موقف من المواقف، فقد حصنته موهبته وسرعة بديهته. يمضي في حياته ينتقل من صيد إلى صيد، لا تفلت منه فرصة ولا يُمنى بالفشل في مغامرة؛ لأنه كان يركز نظرته الثاقبة الأولى في أنوثة المرأة وأغوار الأحاسيس الجنسية في قلبها، دون ما نظر إلى مركزها ومكانتها، وعما إذا كانت زوجة صديق أو خادمة أو غسالة!

وحين يعبرون عن ذلك الطراز من الرجال في النمسا بأنهم من "غواة صيد النساء" ويصفون ذلك الأمر بالوضاعة والزراية، فإنهم يفعلون ذلك على سبيل المداراة، ودون أن يدركوا ما يحمله تعبيرهم من حقيقة واقعة؛ لأن جميع مميزات هذه الهواية ودوافعها وغرائزها من تلهف وفورة، وما تستلزمه من عقل يعمل في قدرة خارقة، يتفاعل كل ذلك في تصرفاتهم وفي أسلوبهم الخلاب المعسول الزاخر بالإغراء وإطراء المفاتن، فهو بمثابة الشباك التي يسهل بها الإيقاع بالنساء واستسلامهن.

تتملك هؤلاء الرجال نزوة جامحة عارمة، وشهوة تختلف في جوهرها عن العواطف النبيلة السامية، أبعد ما تكون عن عاطفة الحب وأقرب ما تكون من شهوة المقامرة، شهوة ساكنة كامنة تقدر الأمور ولكنها في نفس الوقت تودي بصاحبها إلى مواطن التهلكة، وليس بمستغرب أن نرى بعض هؤلاء الرجال قد أوتي عنادًا في الطبع وصلابة مراس وصبرًا لا ينفد وطول أناة. فشاغلهم الشاغل هو ارتقاب المغامرة، فلا يفلتون دقيقة من يومهم دون أن يسعدوا بلذة حسية ولو بسيطة، أو نظرة خاطفة أو ابتسامة هادئة أو لمسة بالقدم أو الساق أثناء الجلوس، فلا تخلوا أيامهم من أمثال ذلك، وكأن هذه الحوادث العابرة هي المعين الذهبي ومنبع روح حياتهم، ينهلون منه في نشوة ومتعة فيذكي نار الوجد والصبابة في نفوسهم.

وهكذا وجد البارون نفسه وسط أناس ليس بينهم امرأة واحدة، ولو إحدى الزميلات، فتناول صحيفة وراح في برم يشخص في سطورها دون أن يعي شيئًا مما حوته، فقد كان فكره مشتتًا كالمخمور لا يفهم معنى للكلمات، وعلى غير توقع سمع حفيف ثوب من خلفه، وصوتًا ينم عن غضب يقول في لهجة متراخية خفيفة بالفرنسية:

– اسكت ياإدجار.. كفى ذلك.

وشعر بحفيف الثوب الحريري، وهو يحتك بطرف مائدته، ورأى سيدة فارعة القوام، بارعة الجمال، تزخر بفتنة طاغية يتبعها طفل صغير نال منه الشحوب يرتدي سترة مخملية داكنة اللون، فرمقه بنظرة فضول، وجلست السيدة والطفل قبالتها إلى مائدة أغلب الظن أنها كانت قد احتجزتها، وخيل إليه أن الطفل كان يبذل جهدًا في التشبث بالهدوء في الوقت الذي كان القلق يعتمل في داخله فتنطق به عيناه.

أما السيدة – وقد أضحت موضع اهتمام البارون– فقد كانت ثيابها غاية في الأناقة، كما كانت من ذلك الصنف من النساء الذي يميل إليه بجوارحه، فقد كان قوامها ممشوقًا وجسمها ممتلئًا ملفوفًا في غير اكتناز، فكانت بالإضافة إلى فتنتها ووسامة وجهها مثالًا رائعًا للجمال، وكان قد تم نضجها، فحلا له قطافها، وبدت مرهفة الحس متوترة الأعصاب، بيد أنه تبين جليًّا أنها كانت تحاول التغلب على انفعالها وإخفاءه وراء قناع من الأسى والاكتئاب!

ولم يكن في استطاعة البارون، في مبدأ الأمر، أن يلقي نظرة فاحصة على عينيها. بيد أن حاجبيها قد راقا له وقد استدارا في نسق بديع، وهما يكادان يلتقيان في رفق وخفة فوق أنفها الدقيق، وهو طابع يتميز به العنصر اليهودي وقد أضفت هذه الوسامة وذلك الجمال على الوضع الجانبي لوجهها فتنة تخلب اللب وتجذب القلب. ومن الإنصاف أن نقرر أن شعرها كان رمزًا لفتنة الأنوثة يذكي في النفس شتى الأحاسيس، وكان اعتدادها بجمالها وبأنها قبلة الأنظار وموضع الإعجاب يملؤها زهوًا بنفسها، فيضفي ذلك على سحرها هيبة ضافية.

وطلبت السيدة الطعام بصوت يكاد لا يسمع، ثم تحولت إلى الطفل فشددت عليه أن يتمسك بآداب المائدة وأن يلتزم الهدوء، إذ كان قد أخذ يعبث بالشوكة التي أمامه محدثًا بها صوتًا لا يليق. فعلت السيدة ذلك دون أن تأبه بنظرات البارون الفاحصة المختلسة في حذر ودون أن تكترث له، بل لقد بالغت في تحفظها، فتظاهرت بأنها لا تفطن إلى وجوده، وإن كان اهتمامها خفية إلى نظراته هو الذي دفعها إلى ذلك التحفظ الذي انطوى –في الواقع– على اهتمام من جانبها.

وبغتة تغير الحال، واكتسى وجه البارون بإشراقة وضاءة، وزايله التجهم، واستيقظت أعصابه بعد استكانة، وأضاء جبينه ونأت عنه التجاعيد التي كان قد خطها الضجر. ونشطت عضلاته واستعادت

حيويتها فاعتدل قوامه وتألقت عيناه. فكان كامرأة ما إن رأت رجلًا حتى جهدت في إبراز مفاتنها وسلطانها، لقد كان طاقة كامنة في حاجة إلى ما يحفزها فتنطلق في اندفاع ونشاط.

إنه وقع على الصيد فلمعت عيناه بذلك البريق السحري، وراحتا تتحديان نظرات المرأة وتتصديان لها. والتقت نظراتهما بين الحين والحين، خاطفة تنم عن اضطراب وتردد وقلق، دون أن يستشف منها جوابا صريحا. وخيل إليه أن ابتسامة كادت ترتسم على شفتيها، فاستبدت به الحيرة لهذا الغموض، وكاد الأمل يخبو في نفسه اللهم إلا ذلك الشعاع الذي كانت ترسله عيناها من نظراتها إليه، والذي استشف منه مبلغ ما تعانيه من حيرة وارتباك ومقاومة، واتضح له أن التحفظ واصطناع الهدوء اللذين التزمت بهما كانا يفضحان شعورًا بالقلق والضيق.

وانتابته حالة من الانفعال، فها هو ذا يرى أمامه الصيد، فجاهد ما استطاع لكي يتلكأ في تناول طعام العشاء ليطيل من بقائه، وظل شاخصًا إليها ببصره لا يحول نظره عنها نصف ساعة، وكأنه يرسم في لوحة خياله كل صغيرة من دقائق وجهها ويلمس بمشاعر الحس كل قطعة من مفاتن جسمها الزاخر بالحيوية والجاذبية والأنوثة.

ولفت الظلمة الفضاء، فأخذت الأشجار تتمايل وتتراقص، وراحت أوراقها ترسل حفيفها متواصلًا -كأنها رتل من الأطفال

الصغار استولى عليهم ذعر شديد– تحت وطأة الريح والمطر، وراحت الظلمة تتسلل إلى قاعة الطعام رويدًا، وران الصمت فاشتد الضيق بالرجال، وغدا حديث الأم لطفلها أكثر اصطناعًا وأوضح تكلفًا، وأدرك البارون بالغريزة أنه لن يلبث أن ينتهي، فأذكى نشاط تفكيره واستقر رأيه على القيام بعمل إيجابي، فنهض عن مائدته، وكان أول من أقدم على ذلك، وسار في خطوات بطيئة متثاقلة صوب الباب، وحين صار في محاذاة السيدة ألقى ببصره إلى الردهة في تعمد ظاهر، كأنه يوحي بشيء، ثم استدار والتفت خلفه بغتة وكأنه نسي شيئًا، فلمحها تنظر وتتأمله بنظرة اهتمام!

وتلكأ في الردهة وانتظر قليلًا، وسرعان ما وجد السيدة قد أقبلت والطفل متعلق بيدها، ثم رآها تتناول بعض المجلات وتقلبها وتعرض على الطفل بعض الصور والرسوم، فاتجه إلى المنضدة التي كانت المجلات فوقها، وكأنه يهم بأن يتناول هو الآخر إحداها، بيد أنه في الواقع كان يسعى وراء هدف آخر، إذ كان يريد أن ينفذ إلى أغوارها من أعماق عينيها، ولعل هاتفًا أهاب به أن ينتهز هذه الفرصة فيبادلها تحية أو حديثًا، بيد أنها استدارت عنه حين رأته مقبلًا نحو المنضدة، وقالت للطفل وهي تربت على كتفه:

– حان موعد النوم يا إدجار، فهيا إلى الفراش.

ومضت لا تلوي على شيء فشعر البارون بالمرارة وخيبة الأمل

حين رآها تنصرف على هذه الصورة، فقد كان يتمنى ويتوقع أن تربطه بها أواصر المعرفة في تلك الليلة، ولكن انصرافها المباغت أيقظه من أحلامه وأمانيه. بيد أنه استشعر لذة ونشوة في ذلك الإعراض والتمنع، فقد أخذه على أنه نوع من الدلال الذي تختص به الجميلات من النساء، وألهبت الحيرة والغموض أحاسيس البارون وأشعلت شوقه وزادت لهفته، فقد شعر بأنه وجد ضالته التي يستطيع أن يذهب معها في مغامرة!

الفصل الثاني

حين جاء اليوم التالي، ودلف البارون إلى القاعة، رأى طفل فاتنته يتحدث إلى غلامي المصعد في صوت واضح، ويطلعهما على صور في كتاب يحمله، ولم تكن أمه معه، ولعلها كانت حينذاك تضع الرتوش الأخيرة في زينتها. فأخذ البارون يتأمل الطفل مليًّا وعن كثب، فرآه حييًّا تشوبه حمرة الخجل ويبدو ثائر النفس والأعصاب وبدا له أن نموه الجسماني غير طبيعي، فقد كان ضئيل الجسم بالنسبة لعمره الذي يناهز الاثنى عشر عامًا.

كما كان بطيء الحركة في بلادة، عيناه غائرتان مكتحلتان، يبدو عليه الفزع كأنه انتزع من أهله ليعيش مع شخص غريب، بينما اكتسى وجهه بمسحة من جمال، وإن كان لم يستكمل معالمه، وقد ظهرت على صفحته آثار فترة الانتقال من الطفولة إلى الرجولة في أولى مراحلها، فكان كالعجينة التي لم تتشكل بعد، فليس هناك معالم تميزها، وكانت ملابسه فضفاضة لا تتلاءم مع ضآلة جسمه، وليس لدى الأطفال في هذه السن ما يدفعه أو يحفزهم إلى التماس التأنق في مظهرهم.

وكانت تصرفات الطفل وتنقله من مكان إلى مكان –دون هدف

أو غرض– يثير الرثاء والإشفاق، وكان الجميع يبرمون ويضيقون به ذرعًا. فهو يثير ضجر البواب حين يلح عليه بالأسئلة فيضطر إلى إبعاده عنه، وفي بعض الأحيان يعترض الداخلين والخارجين عند باب الفندق فيبعث الضيق في نفوسهم. على أنه كان جليًا أنه كان يتوق إلى وجود صديق يؤنسه، فكانت ميوله الصبيانية للكلام والثرثرة تدفعه لإشباع رغبته إلى التماس ذلك مع الخدم والتقرب منهم، فكانوا يجيبون على استفهاماته وثرثرته كلما سنحت لهم الفرصة، بيد أنهم كانوا ينأون عنه ويقطعون حديثهم معه إذا مر بهم أحد الرجال أو إذا اقتضاهم العمل ذلك. وراح البارون يرقب في شغف واهتمام تعلو وجهه ابتسامة ناعمة، أمر ذلك الطفل التعس الذي كان لا يتورع عن الإقدام على أي شيء بدافع الفضول، فكان الجميع يتهربون منه في شيء من الكراهية.

وتطلع الطفل إلى البارون في نظرة فضولية، والتقت نظراتهما لحظة. وأدهش البارون أن يرى عينيه الصغيرتين السوداوين ترتدان في هلع وفزع، لا لشيء سوى أنهما شعرتا بأنهما ضبطتا تتطلعان، فأغمض الطفل عينيه على الفور، وراق للبارون ذلك التصرف من جانب الطفل، فراح يهتم بهذا الطفل الذي كان الوجل دون شك مبعث حيائه وخجله، وقفزت إلى ذهنه فكرة. فأخذ يتساءل:

– أليس من الممكن أن يجعل من هذا الطفل همزة الوصل بينه وبين

فاتنته النافرة ؟ إنما فكرة يجمل به أن يحاولها. وراح، وهو يتظاهر بأنه يسير عفوًا في غير تعمد، يتعقب الطفل الذي انطلق نحو الباب وأخذ يداعب جوادًا ويربت على رأسه ويتحسسها في عطف جميل وحنان كبير، فنهره الحوذي وأبعده في فظاظة. فأخذ الطفل يتنقل من مكان إلى مكان، وقد استبد به الضيق فاكفهرت عيناه وزايله المرح واكتسى وجهه بمسحة من الأسى والكآبة، وعندئذ تقدم منه البارون، وسأله في بشاشة اصطنعها:

– هل تطيب لك الإقامة هنا؟

فاشتد حياء الطفل، وعلت وجهه حمرة الخجل، وأخذ يحملق في البارون بقلق، وقد ألم به خوف شديد، فضم يديه إلى جانبيه، وحرك رأسه يمنة ويسرة في ارتباك ظاهر، فقد كانت هذه أول مرة –كما يلوح– يتحدث إليه فيها شخص لا يعرفه. وبعد فترة قال الطفل:

– نعم يا سيدي، شكرًا.

وكان هذا غاية ما استطاع النطق به، حتى لقد نطق بالكلمة الأخيرة في عناء بالغ.

فقال البارون وهو يضحك لكي يسري عن الطفل ويطرد عنه الخوف:

– عجيب ما تقول، فإن هذا المكان يبعث السأم لفتى مثلك. كيف تقضي ساعات يومك؟

وكان الفتى لا يزال على حاله من الاضطراب الذي أعجزه عن أن يرد عن سؤاله بجواب حاضر. ولعله لم يصدق أن سيدًا كالبارون – ذا شخصية بارزة– وليست له به صلة قرابة أو معرفة، يتبسط في التحدث إليه وهو الذي لم يفكر أحد في الاهتمام به، بل على العكس كان الجميع يبتعدون عنه وينفرون منه، وزادت هذه الفكرة من خجله، ولكنه استشعر الزهو في الوقت ذاته، واستجمع شتات أفكاره في عناء وقال:

– إنني أقضي بعض الوقت في القراءة، وأحيانًا أتريض سيرًا على الأقدام، وأحيانًا أخرى أخرج مع أمي للنزهة في عربة. لقد جئت إلى هذا المكان للنقاهة، إذ كنت مريضًا، وقال الطبيب إن أشعة الشمس تساعدني على أن أستعيد صحتي.

وقد نطق الفتى بالكلمات المتعلقة بالنقاهة والمرض وإشارة الطبيب وهو يشعر باعتداد وثقة في نفسه، فإن الأطفال يهولون دائمًا من شأن المرض، إذ يدركون أن ذلك يدفع أهلهم إلى مضاعفة الاهتمام بهم.

وعلق البارون على كلام الفتى قائلًا:

– أنا لا أنكر ما للشمس من فائدة لك، فهي قد تضفي على جسمك المعرض لها بعض السمرة، لذلك ينبغي ألا تطيل البقاء تحت وهج أشعتها، وأنه لأحرى بك أن تمارس رياضة الجري وأن تكون أكثر إقدامًا ومجازفة لأن ذلك يجدد حيويتك ويضاعف نشاطك، فإنني أراك أكثر هدوءًا مما ينبغي، وإنك كالقزم إلى جانب ذلك الكتاب الضخم الذي تحمله، وكم أقدمت على سخافات وأنا في مثل سنك، حتى لقد كنت أعود إلى المنزل كل مساء وقد تمزقت ملابسي، فليس من الحكمة أن يتمسك الأطفال بالهدوء والرزانة!

وانفجرت شفتا الفتى بابتسامة عذبة، وما لبث أن زايله الشعور بالخوف والحياء، وتمنى أن يرد على حديث البارون ولكنه فكر في أن ذلك يتنافى مع قواعد الأدب، وأن ذلك قد يعتبر جرأة منه واندفاعًا أمام هذا الرجل الوسيم المهذب الرقيق المشاعر الذي لا يعرفه ومع ذلك يحدثه بلهجة زاخرة بالعطف والحنان.

كما لم يسبق له أن تورط في موقف كهذا، فلفَّته الحيرة، وتضافر شعوره بالسعادة والغبطة مع الخجل الذي يعتريه فأثارا الاضطراب في نفسه، وتمنى لو أن حديث الرجل لا ينتهي لأن الإجابة أعوزته. وأنقذه من هذا المأزق أن كلب الفندق الكبير أقبل وراح يتشمم الرجل والفتى

وقد أنس لمداعباتهما، فقال البارون:

– أتميل إلى الكلاب وتحبها؟

فأجاب الفتى على الفور:

– أحبها جدًّا، إننا نقضي الصيف عند جدتي في دارها ببلدة بادن بالقرب من فيينا، ولديها كلب أليف لطيف يأبى إلا أن يلازمني طول الوقت.

فقال البارون، مبالغة في التودد إلى الفتى، وليبعث في نفسه الغبطة والطمأنينة:

– وكذلك نحن، ففي ضيعتنا عشرات وعشرات من الكلاب الثمينة النادرة من مختلف الأنواع، وسأهديك واحداً منها ذا لون ذهبي وأذنين متدليتين جميلتين، صغير السن. فهل يروق لك ذلك؟

وكاد الفتى يطير من الفرحة، وتورد وجهه، وطفحت أساريره بالبشر على الفور وكأنه يتحرق شوقا للحصول على الكلب في التو واللحظة:

– كم يسرني ذلك!

وبعد تفكير قليل، استشعر بعض الخوف فأردف يقول:

– ولكن أمي تعارض ذلك، وتقول إن الكلاب مصدر للمتاعب والمضايقات.

وشاعت ابتسامة على وجه البارون حين تدرج الحديث إلى الأم فقال:

– وهل والدتك حادة الطبع هكذا؟

ففكر الفتى قليلًا قبل أن يجيب، ولعله كان يفكر فيما إذا كان من الصواب أن يتحدث عن أمه أمام شخص غريب، وأخيرًا قال في شيء من التحفظ:

– أمي ليست حادة الطبع أو قاسية، فإنها تتساهل معي كثيراً ولا ترفض لي مطلبًا، لأنني مريض وفي دور النقاهة، وربما سمحت لي باقتناء كلب.

– هل أطلب منها أن تلبي لك هذه الرغبة؟

فشاعت الفرحة على أسارير الفتى، وهتف قائلًا:

– آه.. أرجو أن تبادر إلى ذلك، فإنها ستوافق على الفور، ما في ذلك ريب. صفه لي، هل هو أبيض الأذنين؟ وهل في مقدوره أن يلتقط الكرة ويعود بها إليّ إذا قذفتها أمامه؟

– إنه كذلك، ففي استطاعته أن يفعل كل شيء.

وأضاء وجه البارون بابتسامة الرضا، إذ رأى عيني الفتى قد تألقتا، فأمكنه بذلك أن يطرد الخجل الذي كان مستوليًا عليه وانطلق الانفعال الذي كان مكتومًا تحت وطأة الخوف.

وإذا بذلك الطفل الذي كان يرزح تحت وطأة الخجل والخوف والاضطراب يتحول إلى فتى يطفح بالبشر والطمأنينة والحيوية، فراح البارون يقول لنفسه: "ليت الأمر كان كذلك مع أمه، ليتها تخفي وراء هذا الحذر والتحفظ، عاطفة ملتهبة كهذه!"

وراح الفتى يمطره بوابل من الأسئلة:

– ما اسم ذلك الكلب؟

– لكي.

– لكي، إنه اسم جميل.

وأخذت الفتى نشوة من السرور والفرح فراح يضحك، وازدهاه هذا الأمر الذي لم يخطر له على بال. فأمامه شخص يتبسط معه في الحديث في حدب وعطف، بل يوليه اهتمامًا لم يكن يتوقعه، وشعر البارون بالزهو لهذا التوفيق، فقرر أن ينتهز الفرصة ولا يدعها تفلت من يده، فدعا الفتى إلى نزهة في صحبته، فطار الفتى فرحًا بهذه الدعوة؛ إذ كان يعاني وحدة قاسية ويتوق إلى أن يكون له رفيق يؤنسه، فراح يتحدث في صراحة وبراءة الأطفال إلى هذا الصديق بكل ما يريد أن يعرفه عن طريق الأسئلة التي بدت وكأنها من وحي الساعة. وبعد فترة قصيرة كان البارون قد ألم بكل صغيرة وكبيرة عن أسرة الفتى، فعرف أنه وحيد أبيه المحامي في فيينا وأنه ينحدر من سلالة

يهودية ومن طبقة موسرة. كما عرف أن الأم تضيق بالإقامة في سيمرنج وأنها تتوق إلى صحبة محببة. وانتهز البارون هذه الفرصة، فسأله الفتى عما إذا كانت علاقة أمه بأبيه على وفاق وصفاء، وقد أجاب بأنهما ليسا على وئام تام!

واستشعر البارون الخجل من نفسه لتحايله لمعرفة هذه الأسرار العائلية من الفتى بمثل هذه البساطة والسهولة. وليس بعجيب أن الفتى كان يشعر بزهو بالغ لأن حديثه وقع موقع الاهتمام من شخص كبير، فلم يخف شيئًا عن ذلك الصديق، وغمره الإعجاب بنفسه لأن الناس يرونه في صحبة وثيقة مع شاب كبير، فقد شمله البارون بمزيد من العطف بأن وضع ذراعه على كتف الفتى أثناء نزهتهما، وهكذا شيئًا فشيئًا، نسي الفتى فارق السن بينه وبين البارون، وأنه ليس سوى فتى صغير، فانطلق في الحديث في براءة الأطفال دون تحفظ، وكأنه يتحدث إلى ولد صغير مثله!

واستشف البارون من حديث الفتى أنه يتمتع بقسط كبير من الذكاء وسرعة البديهة، بل إن عقله أكبر من سنه، وتفكيره يرقى إلى مرتبة كبيرة من الرجاحة، شأنه في ذلك شأن الفتية الذين تعتريهم أمراض أو علل، أو الذين يختلطون بمن هم أكبر منهم، فقد كان مندفعًا في عواطفه أيًّا كانت هذه العواطف –سواء في ذلك ما ينطوي منها على حب أو كراهية– فلم يبد عليه اعتدال أو اتزان في واحدة

منها، فكان إذا تحدث عن شخص ما اندفع في إظهار الحب له أو كراهيته في تحمس وعنف، وتتجلى انفعالاته على حركاته وأسارير وجهه، فتنبسط حين يتحدث عن عاطفة الود وتتجهم عند التحدث عن البغض والكراهية. ولعل ذلك من مخلفات المرض الذي كان قد ألم به. وما كانت تصرفاته المتطرفة سوى شعور بفزع مكبوت إزاء عواطفه المضطرمة التي كان يجد عناء كبيرًا في كبحها!

وبعد فترة تقل عن الساعة، كان البارون قد ملك زمام هذا القلب الصغير الملتهب المضطرب. فما أسهل خداع طفل ساذج وبخاصة إذا كان قد لقي نفورًا ممن حوله! وتحدث البارون عن ماضيه هو أيام كان طفلًا، فلم يسع الفتى إلا أن يعتبره صديقًا ورفيقًا، وغمرته السعادة لعثوره في هذا المكان النائي على صديق عطوف ودود، أنساه من خلفهم من رفاق صغار في فيينا بأصواتهم الطفلية وثرثرتهم الفارغة، حتى لقد انطمست من ذاكرته صورهم وذكراهم، فاندفع بكليته وبمشاعره وعواطفه نحو ذلك الصديق الكبير، وأفعم بالزهو والإعجاب بنفسه عندما دعاه هذا الصديق لحظة افتراقهما إلى ملاقاته في صباح اليوم التالي، ثم وهو يرسل إليه التحية من بعيد كما يفعل الإخوة والأصدقاء الحميمون عند الوداع. وقد كانت هذه اللحظة من أمتع وأسعد اللحظات عند إدجار!

وابتسم البارون ابتسامة ذات مغزى، وهو يرمق الفتى الذي راح يعدو، فقد عثر على مفتاح المغامرة وهمزة الوصل التي ينشدها، وكان على يقين من أن الفتى سيقص كل كلمة تبادلاها على أمه، وبخاصة ما يتعلق بتلك الأم وإطرائه على لباقتها وظرفها، وقوي الأمل في نفسه بأن الفتى سيوثق الصلة بين أمه وصديقه، وبذلك يكون قد وفر على نفسه عناء السعي وراءها، وراء فاتنته الحسناء، ومن حقه أن يطمئن الآن، وأن ينعم بأعذب الأحلام وأن يتأمل جمال الطبيعة، وهو يعلم سلفًا أن الفتى سيكون القنطرة التي ستوصله إلى قلب الحسناء.

الفصل الثالث

تأكد البارون، أن الخطة التي أتقن رسمها سريعة الأثر، فقد حالفها التوفيق جملة وتفصيلًا. وعندما حان وقت العشاء، تأخر في دخول قاعة الطعام عامدًا، وما إن لمحه الفتى حتى قفز عن مقعده وحياه في حماس وحرارة وقد طفحت أساريره بالبشر وتألقت عيناه، وجذب ذراع أمه، وتحدث إليها وهو يشير بيده إلى البارون حتى لاحظ الموجودون ذلك.

فتخضب وجه السيدة خجلًا واعتراها ارتباك ظاهر، فأنبت الطفل على ذلك الطيش، ومع ذلك لم تستطع مقاومة الفضول، فتطلعت إلى الناحية التي أشار إليها الفتى، ترضية له، فكانت هذه فرصة البارون الذهبية، فحنى رأسه للسيدة في احترام بالغ، وهكذا في سهولة وسرعة وبساطة اتصل خيط التعارف بينهما، إذ اضطرت هي إلى رد تحيته في أدب ووقار، وإن كانت قد حرصت بعد ذلك أن تميل برأسها ووجهها نحو صحاف الطعام، وتجنبت في حرص وحذر الالتفات ناحية البارون، أما الفتى فكان على العكس من ذلك، فقد تعلقت عيناه بصديقه لا تحيدان عنه، بل لقد هم أن يخاطبه رغم بعدهما عن بعضهما، فحنقت أمه لهذا التصرف المعيب وأنبت الطفل

في عنف، وعقب العشاء مباشرة طلبت إلى الفتى أن يأوي إلى فراشه، فلاح الأسى على وجهه وتبادل معها حديثًا هامسًا، سمحت له بعده أن يذهب إلى تحية صديقه. وإذ وصل إلى البارون أخذ يلاطفه لبضع لحظات، فعاد الطفل وعيناه تتألقان.

وبغتة تحول البارون ببصره نحو مائدة الحسناء في حركة رائعة، وفي لباقة هنأها –وقد اعتراها الارتباك– بذلك الابن الذي يتمتع بقسط كبير من الذكاء وسرعة البديهة، ذاكرًا بالغبطة والإطراء الوقت الممتع الذي قضاه في صحبته في الصباح. وقد تورد وجه الفتى غبطة وزهوًا وهو يستمع، وأراد البارون أن يصل حبل الحديث، فراح يطرق موضوع صحة الطفل مستفسرًا عنها بعديد من الأسئلة، مما اضطر الأم أن تجيب عنها. وهكذا اندمجا في حديث طويل، كان الفتى ينصت إليه في غبطة وإن لم يحد عن قواعد الأدب والاحترام.

وعندما قدم البارون نفسه إلى الحسناء، لاح له أن فخامة لقبه ورنينه كان لهما صدى عميق الأثر في نفسها، فقد لاحظ أنها أخذت تعامله في لباقة وتقدير رغم تحفظها، وبعد فترة قصيرة استأذنت في الانصراف مراعاة لصحة الطفل، بيد أن إدجار عارض في إلحاح ذاكرًا لها أنه لا يشعر بأي تعب، حتى أن باستطاعته أن يظل مستيقظًا طول الليل حاظيًا بتلك الصحبة، ولكن أمه كانت قد بسطت يدها للبارون مودعة، فقبلها في احترام بالغ!

وتنازعت نفس الفتى في تلك الليلة أحاسيس مضطربة من السعادة واليأس، وعصفت بأفكاره، فلم ينعم هادئًا هنئًا. فقد جد في حياته أمر لا عهد له به، إذ بدأ يشعر أنه عامل مهم في حياة أشخاص أكبر منه، فجسم ذلك له من شأن نفسه، واستشعر شيئًا من الاعتداد بالنفس، وكان محرومًا من الصداقة، وقد نشأ في عزلة وتحالفت عليه العلل والأمراض.

كما كان مفتقرًا إلى العطف والحنان اللذين ينتظرهما من أبويه، ولكن هذين الأبوين كانا في شغل عنه ونادرًا ما كانا يحفلان به. وقد درج الناس على الاستهانة بعاطفة الحب وأثرها وقوتها، فينظرون إلى الحب من ناحية الموضوع ولا يهتمون بالحالة النفسية التي تسبقه، والتي تكون عادة في تلك الحقبة الموحشة التي تتخلف عن الوحدة والعزلة وخيبة الأمل والتي تمتد نتائجها إلى ما يصيب القلب من أحداث جسام. فقد زخر الفتى بفيض من الأحاسيس الكامنة المعطلة والمتحفزة في الوقت نفسه للانطلاق، فلما ظهر أول شخص على مسرح حياته وشعر بأنه جدير بها، انطلقت تلك الأحاسيس دافقة!

وتنازع الفتى في مخدعه المظلم شعوران متباينان.. نشوة من السعادة وموجة من الحيرة، ود أن يضحك ملء فمه ما وسعه الضحك، واستشعر في الوقت نفسه رغبة ملحة في البكاء. إنه أحب البارون كما لم يحب أحدًا من قبل، حتى أباه وأمه، وتركزت جميع

عواطفه وأحاسيسه ومشاعره في شخص هذا الرجل الذي لم يكن يعرفه أو يعرف اسمه حتى وقت قريب، بيد أنه رغم ذلك كان على جانب من الفطنة والذكاء جعله لا يتهيب الغامض والمجهول، ويهيب به أن يعتز بهذه الصداقة، ولم يكن يثيره سوى شعوره بتفاهته وبالفارق الكبير بينه وبين صديقه، حتى لقد راح يسائل نفسه في حيرة وقلق:

– هل أنا جدير بصداقته وأنا فتى لم أتجاوز اثني عشر عامًا من عمري، لم أبدأ بعد مناهل العلم، أذهب إلى فراش النوم مبكرًا شأن جميع الأطفال؟ يا لمرارتي! ماذا يمكن أن أكون في نظره؟ وماذا أستطيع فعله لكي يفيد مني؟!

وحز في نفسه ذلك القصور في التعبير عن مدى اعتزازه وتعلقه بصديقه، فقد كان يعبر عن ذلك فيما مضى باقتسام ما يملكه من طوابع البريد وأقلام الألوان إذا أسعده الحظ بصديق جديد، وكانت تلك الهدايا غاية ما يملكه الطفل ويعتز به، ولكنها تبدو الآن في نظره تافهة القيمة تثير السخرية، وكيف تطاوعه نفسه أن يقدم مثل هذه الأشياء إلى صديقه الكبير؟ واستبدت به الحيرة بصدد الطريقة التي يعبر له بها عن مشاعر حبه له وأخذ الألم يتسلل إلى نفسه لشعوره بأنه لا يزال فتى صغيراً لم تكتمل رجولته، واشتد حنقه، وتمنى لو أن معجزة واتته فرأى نفسه في صباح اليوم التالي، ذلك الصباح الذي دعاه فيه صديقه إلى لقائه، وقد شب عن طوقه وأضحى قويًّا مكتمل

الرجولة. كثيراً ما راودته هذه الأحلام في منامه!

وأخذت هذه الهواجس تتفاعل مع أحلام الفتى التي تتميز بها فترة النضج هذه، فأخلد إلى النوم وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة، ولما كان موعد صباح الغد قد أضحى شغله الشاغل، وقد فكر فيه كثيرًا، وأخذ ينتظره بصبر نافد، فكان من نتيجة ذلك أن استيقظ قبل السابعة من صباح اليوم التالي حتى لا يتأخر عن موعده، وارتدى ملابسه في خفة وعلى عجل، ثم ذهب ليعانق والدته ويقبلها، فدهشت للهفته ونشاطه وسرعته. وقبل أن تستفسر منه عن سر هذا النشاط كان قد هرول نحو السلم، وظل يروح ويغدو في صبر نافد مدة ساعتين، وقد نسي تمامًا أو لعله أراد أن ينسى طعامه جاعلًا نصب عينيه أن يلقى صديقه في الموعد وأن يجنبه عناء الانتظار!

وفي منتصف الساعة العاشرة، أهلت طلعة البارون وأقبل يتهادى على مهل لا يكترث بما حوله، وكان يعلق الآمال في خياله على ذلك الموعد ويتمناه من وقت طويل، وابتسم إذ رأى الفتى يعدو نحوه في لهفة بالغة، ثم رضي عن طيب خاطر أن يفي بوعده، فأمسك بذراع الفتى وراح يتمشى معه، وإن أبدى في ترفق عدم الرغبة في الذهاب إلى النزهة على الفور، وبدا كأنه ينتظر أمرًا ما، فقد نمت عن ذلك نظراته التي راحت تتجه نحو الباب ترقبه في قلق، وبغتة اندفع بجسمه إلى الأمام، وانحنى محييًا الحسناء التي كانت قد أقبلت، فردت التحية

وسارت نحو الصديقين.

وابتسمت ابتسامة غبطة ورضا حين علمت بأمر النزهة التي حرص الفتى على إخفاء أمرها عنها، وكأنها سر من الأسرار لا يجوز أن يبوح به. وبعد شيء من الدلال والتردد، قبلت دعوة البارون لمشاركتهما فيها!

وكان حريًّا بالفتى أن ينشرح صدره لمصاحبة أمه لهما في نزهتهما، ومن عجب أن ما حدث كان على النقيض من ذلك، فقد تجهم وجه الفتى وعبس وجز على شفتيه، وأضجره أن تحضر أمه في تلك اللحظة. لقد كانت النزهة له ومعه فقط، وإنه وإن كان قد قام بمهمة همزة الوصل ووصل المعرفة بين أمه وبين صديقه البارون، فلم يكن ذلك إلا على سبيل المجاملة لها دون أن يشركها معه في صداقته، بل كان يريد أن يستأثر وحده بتلك الصداقة، وأثار ذلك في نفسه إحساسًا بالغيرة، وبخاصة حين لاحظ عبارات اللطف والمجاملة التي اختص بها البارون والدته. وساروا – ثلاثتهم– في طريقهم إلى النزهة، وإذ رأى الفتى ما يبديه البارون من إقبال واهتمام وتلطف نحو أمه، شعر باعتداد في نفسه وبأنه شخص له نفوذه وقيمته، وبخاصة وقد كان الفتى موضوع حديث الاثنين معظم الوقت، وكانت الأم تتحدث في شيء من اللف والدوران عن شحوب الفتى وإرهاف حسه وتوتر أعصابه، بينما راح البارون يبتسم وهو ينفي عن الفتى ما تذكره عنه

أمه، وأخذ يطريه ويبالغ في الثناء على "صديقه"، كما كان يدعوه، واغتبط الفتى لذلك أشد الاغتباط إذ أصبحت له مزايا ومكانة وحقوق لم تكن له من قبل في طفولته. وسمح له أن يتكلم حين يشاء، بعد أن كان الصمت مفروضًا عليه، وصار في استطاعته أن يعبر عن رغباته التي كانت تقابل قبل ذلك بالزجر والتأنيب. فليس بعجيب أن يذكي ذلك في نفسه الشعور بأنه أضحى كبيرًا، وأنه تعدى طور الطفولة التي صارت في نظره شيئًا ولى ومضى، وأنه تخلص منها إلى غير رجعة!

ودعت الحسناء البارون إلى الغداء، فلبى الدعوة شاكرًا. وازداد تبسطها وتلطفها حين جلس إلى مائدتها، وزالت الكلفة بينهما، ولم تعد صلتهما مجرد الوجود متجاورين على الموائد، بل اندمجا وتوثقت أواصر المعرفة بينهما، فأصبحا يجلسان وجهًا لوجه، وتطور التعارف وتحول إلى صداقة، فاكتمل عقد الثالوث، وراحت أحاديث الحسناء والبارون والفتى تختلط وتمتزج في تآلف وانسجام.

الفصل الرابع

أوحت لهفة البارون له أن الوقت قد حان للقطاف، فما كان يرضيه أن يقف على عتبة زوال الكلفة بينه وبينها وصداقته لابنها. ولو أن في تبادل الحديث بينهم متعة شائقة له، ولكن ذلك لم يكن غاية بغيته، وكان يوقن أن أمور الحياة إذا لابستها الحيل ومناورات الغزل فإنها لا تؤتي الثمرة المرجوة في أسرع وقت، بل تؤخر الأحاسيس بين الرجل والمرأة، وبخاصة إذا كان الحديث في غير حرارة واقتحام الميدان باردًا غير ملتهب، لذلك آثر أن يضيق رقعة الأحاديث التي يتناولونها حتى لا تغيب عنها حقيقة ما يرمي إليه.

ومال إلى الاعتقاد بأن لهفته على بلوغ نهاية الشوط ستؤتي ثمرها عاجلًا، وكانت هي في تلك الفترة الحرجة من مراحل حياتها يساورها القلق والتفكير والندم، لأنها ظلت على ولائها وفية لزوج لم تشعر نحوه بعاطفة حب، وفي هذه الفترة بالذات يجنح جمالها إلى الغروب، فتتناوشها الهواجس بأنه ليس ثمة أمامها سوى فرصة واحدة وأخيرة، هي فترة الصراع بين الزوجة الأمينة الوفية التي تعتز بشرفها وكرامتها وبين المرأة العابثة المستهترة، بين الأمومة بمثلها العليا وبين الأنوثة بنزواتها الطاغية. تجيء هذه الفترة في الوقت الذي تكون فيه المرأة قد

قطعت شوطاً كبيراً في حياة الاستقرار، فإذا شعورها بأنوثتها وما يلازم هذه الأنوثة من رغبة في المتعة وقد استأثرا بكل تفكيرها.

وهنا تشوب البلبلة أفكارها، وتتناوشها الهواجس، وتتأرجح كفة الإرادة بين الشهوة وبين الشرف والرضا، وهذه أحسم اللحظات في حياة المرأة لأنها تضطر إلى سلوك أحد الطريقين، فإما أن تعيش زوجة وأمًّا، وإما أن تعيش أنثى!

وكان البارون ممن خبروا فنون النساء، وممن نفذوا إلى أغوار أعماقهن، فعرف ما يعتمل في دخائلهن. فبدا له هذا التردد الذي لاح على الحسناء بين الأمرين: إما التمسك بحياتها الراهنة الفاضلة، أو التضحية، ولاحظ أنها كانت تتعمد دائمًا تجنب الحديث عن زوجها، الذي يرجح أن أعماله ومشاغله خارج نطاق المنزل كانت تستغرق كل وقته.

كما استشف كذلك أنها لا تستشعر في أعماقها حبًّا أو تعلقًا بابنها، وكانت عينا الطفل السوداوان تنمان عن ضيق كامن، كان مبعث أسى يكدر صفو أمه. وحزم البارون أمره وقرر أن يبدأ المغامرة على الفور بطريقة معسولة فيها كثير من الإغراء، على أن يتظاهر بالأناة وعدم التسرع. فتظاهر بعدم الاكتراث بهذه الصداقة بينه وبينها، لأنه أراد أن يمسك بزمام الموقف، وأن يكون هو المحور الذي تسعى هي إليه لا أن يكون هو الساعي. يرمي من وراء ذلك إلى

سحق كبريائها وإذلالها، بإبراز الفارق الكبير بين مركزه الاجتماعي ولقبه المرموق وبين مركزها العادي، فاتخذ من لقبه الرفيع وارستقراطيته العالية سلاحًا يمكنه من الوصول إلى هذا الجسم البديع الممشوق المتفتح كزهرة الزنبق، ثم قهر ذلك الجسم وغزوه بإظهار كبريائه مشفوعة بالفتور في الاهتمام بها!

ولم تلبث هذه الفكرة الشيطانية أن طغت عليه، فحزم أمره وفرض على نفسه التمسك بأهداب التحوط والحذر، ولم يبرح غرفته بعد الغداء، واستشعر عذوبة في أن هناك من يفتقده وينتظره. بيد أن هذا الاحتجاب المصطنع لم يكن موضع اهتمام لدى الحسناء، ولم يثر في نفسها الرغبة في رؤيته أو لقائه، لأنه لم يكن قد شغل ذهنها حتى تفطن أو تأبه لوجوده أو عدم وجوده. ولكن هذا الاحتجاب كان قاسيًا على الفتى المسكين الذي أحس بالعزلة والفراغ، فظل الساعات ينتظر الصديق في صبر عجيب وفي وفاء الأطفال، ودار بخلده أنه إذا انصرف أو شغل بشيء آخر فإن ذلك يعد خرقًا لأصول الصداقة.

فأخذ يقتل الوقت بالسير في تثاقل دون غرض وعلى غير هدى في ردهات الفندق، وكان ضجره يزداد بمضي الوقت، كما راح القلق يصور له شتى الاحتمالات، فجال بخاطره أن حادثًا ربما أصاب الصديق، أو أن هفوة بدرت منه عفوًا فأغضبته. واستبد به الأسى حتى كاد ينفجر في البكاء لنفاد صبره!

وأقبل المساء، وحان موعد العشاء، وقدم البارون لتناوله فاستقبل استقبالًا بالغ الروعة، فقد راح الفتى يعدو نحوه دون أن يأبه بأمه التي نهرته في قسوة، ودون أن يكترث لنظرات الجالسين ودهشتهم، وارتمى في أحضان صديقه وطوقه بذراعيه الصغيرتين في شوق وحرارة وهو يصيح منفعلاً:

– أين أنت يا صديقي؟ وأين كنت؟ لقد طرقنا كل مكان بحثًا عنك؟!

وتضرج وجه أمه خجلًا لأن الفتى أوحى بكلامه أنها كانت هي الأخرى تبحث عنه، فضايقها ذلك وقالت في غلظة:

– اجلس يا إدجار والتزم التعقل.

وكانت فرنسيتها ركيكة، حتى لقد كان يعتريها الارتباك حين كانت تضطر إلى التحدث عن تفصيلات دقيقة. واستكان الفتى، ولكنه راح يمطر البارون بأسئلته، فعادت الأم تقول له في شيء من العتاب:

– أعلن أن للسيد أن يفعل ما يشاء وما يحلو له. وربما لم ترق له صحبتنا أو أنها ضايقته!

فشعر البارون بالغبطة فقد أفلحت حيلته، إذ كشفت الحسناء في غير تحفظ أو حذر عما يعتمل في صدرها، وأقحمت نفسها في الأمر بهذا العتاب الذي كان في الواقع صورة من صور المجاملة له.

فتنبهت غريزة الرغبة في الاستيلاء الكامنة في أعماقه، وانتشى لذلك التوفيق السريع للخطة التي رسمها، وأيقن أن الصيد أصبح قاب قوسين أو أدنى من متناول يده، فلمعت عيناه وشعر بالدم يجري ساخنًا في عروقه، وراحت الكلمات تترى دافقة من شفتيه دون أن يدري كيف واتته هذه القدرة على الكلام. شأنه في ذلك شأن من يعاني من الصبابة والوجد، يرى أول بارقة تدل على أنه راق في عيني امرأة، فتلتهب أحاسيسه وتتأرجح مشاعره، فيضفي عليه ذلك قدرة خارقة ولباقة نادرة. وكان فنانًا في رواية القصص الزاخرة التشويق والإغراء والتي تثير كوامن الأحاسيس، فراح يروي في ذلك المساء عددًا منها عن رحلات قام بها للصيد في بلاد الهند بدعوة من صديق إنجليزي عظيم المكانة، وأخذ –خلال سرد قصصه– يحتسي في نهم كئوس الشمبانيا التي راح يطلبها تباعًا احتفاء بتلك الصداقة التي توثقت أواصرها، مما جعله يتجاوز في حديثه كل ما كان يتوقع من متعة، وقد كان موفقًا ولبقًا في اختيار موضوع حديثه لأنه واسع المجال والخيال وفيه الكثير من أسباب الإثارة للمرأة. بيد أن الفتى كان أشد من أمه انتباهًا وانبهارًا بهذه القصص، حتى أشاعت الغبطة في نفسه فتجلت في بريق عينيه، ونسي أمر الطعام والشراب، وراح يحملق في وجه البارون وكأنه يلتقط الكلمات ويتلقفها من شفتيه. ولم يدر بخلده أن يرى يومًا رجلًا عاش هذه الأحداث التي لا يعلم عنها شيئًا إلا بين صفحات الكتب، وكان يعتبرها ضربًا من الخيال، كصيد الأسود

والنمور ومغامرات الهنود الحمر وسحرهم وطلاسمهم ومركبات الحرب والدمار عندهم، تلك المركبات الرهيبة التي تفني آلافًا من البشر في لحظة، لم يكن يصدق أن لمثل هؤلاء الناس وجودًا في عالم الحقيقة، بل ما كان يعتقد في وجود هذه البلاد في العالم، فقد كان يظنها من القصص الخرافية أو الخيالية.

ولهذا جذبت انتباهه وأثارت فيه اهتماماً شديداً، فظل طول الوقت يحدق في وجه صديقه لا يحول عينيه عنه، بل تابعه بإدراكه وكافة مشاعره، وعجب كيف يقتل صديقه هذا أسدًا شرسًا أو نمرًا مفترسًا، وانعقد لسانه فلم يجرؤ على توجيه سؤال، وحين حاول ذلك انبعث صوته مبحوحاً كالمبهور، وراح يرسم في خياله كل مشهد في تلك القصص السحرية، فكان يتمثل البارون وقد اعتلى ظهر فيل ضخم داخل هودج زاهي الألوان يحوطه هنود من ذوي الوجوه الحمر، علت رءوسهم عمائم ضخمة، ويتمثل النمر وقد كشر عن أنيابه فبدت تلمع في بريق رهيب وهو يقفز من الغابة ويندفع نحو الفيل منشبًا مخالبه في خرطومه.

وبعد ذلك راح البارون يقص أحداثًا أشد إثارة وأدعى إلى التشويق والاهتمام، فشرح الحيل التي يقتنصون الفيلة بها، بأن يستدرجوا صغارها العابثة في مرح إلى حفر يعدونها خصيصًا لذلك مستعينين في الإيقاع بها بحيوانات كبيرة مدربة. وهكذا راحت قصص

البارون تترى الواحدة تلو الأخرى، وكل واحدة منها أشد إثارة وأكثر تشويقًا من سابقتها. حتى زاغت عينا الفتى وتألقتا في انفعال، وهو يتخيل ويتمثل الرمح يلمع ثم يغوص في الفريسة فيصرعها!

الفصل الخامس

انتهى البارون من سرد قصصه، وكانت الساعة حينئذ قد بلغت التاسعة مساء، فقالت الأم لابنها:

– حان موعد النوم، فهيا!

فاكفهر وجه الفتى لهذا الأمر الذي أصدرته إليه أمه، والذي نقله من عالم الخيال الذي كان سابحًا فيه. ومن عادة الصغار أن يروا في إصدار مثل هذه الأوامر لهم، وبخاصة أمام الناس، تصغيراً من شأنهم وبأنهم ليسوا ذوي أهلية للتمتع بالحرية، وقد استثار الفتى أن أمه تمنيه بخيبة أمل شديدة بحرمانه من متابعة القصص ومعرفة خاتمتها، تلك القصص التي شغفته واستحوذت على لبه، فتوسل إليها قائلًا:

– دعيني يا أماه أستمع لهذه القصة أيضًا، هذه القصة فقط، التي تدور حوادثها حول الفيلة الضخمة.

وهم بأن يلحف في الرجاء والتوسل، ولكنه آثر أن يحتفظ بشخصيته وعزته ككائن، فلم يلح على أمه أكثر من ذلك. بيد أنها أبدت نحوه في ذلك المساء بالذات قسوة في المعاملة لم يعهدها منها من قبل، إذ رآها تزجره بحدة وهي تقول له:

– لا تلجئني إلى تكرار تنبيهك. قلت لا، فقد تأخر الوقت، كن مطيعًا وهيا إلى فراشك، وأعدك بأن أقص عليك ما سأسمعه من القصص.

ولاح التردد على الفتى، فقد تعود أن تصحبه أمه إلى الفراش، وهذه أول مرة تتصرف معه هكذا، ولم يشأ أن يحط من قدر نفسه أمام صديقه إن هو عاود التوسل، فأراد أن يبرر رحيله بتعليل يحفظ عليه كرامته، فقال لأمه:

– أحقًّا ستقصين على كل صغيرة وكبيرة يا أماه؟ جميع القصص؟

– طبعا يا بني، بعد أن أسمعها.

– في ليلتنا هذه؟

– ليكن ذلك. والآن هيا إلى فراشك!

وفي هذه المرة، عندما هم الفتى بالرحيل، مد يده ليحيي البارون ويحيي أمه، وعجب من نفسه أن وجهه لم يتضرج، بيد أنه أدى التحية وهو يكتم تنهداته وزفراته لكيلا يفلت زمام مشاعره فينخرط في البكاء، وداعب البارون الفتى ملاطفًا، فانفرجت شفتاه الصغيرتان بابتسامة مغتصبة رغم الحنق الذي يعتمل في نفسه، وما لبث أن أسرع الخطى نحو الباب.

ولو لم يبادر إلى ذلك لشاهد الاثنان عبرات الفتى تجري على وجنتيه!

وظلت الحسناء في قاعة الطعام فترة من الوقت مع البارون عقب انصراف الفتى، وتوقف الرجل عن سرد أقاصيص النمور والفيلة والهنود والصيد، وتبلبل حديثهما وشابه بعض السأم والاضطراب. وبعد قليل انتقلا إلى الردهة، وانتحيا أحد الأركان، فجلسا فيه بعيداً عن أعين الرقباء، ولم يلبث البارون أن استعاد عزمه فنشطت حيويته، أما هي فقد بدت منتشية من تأثير عديد كئوس الشمبانيا التي رشفتها، فكان من نتيجة ذلك أن الحديث بينهما جنح إلى ناحية حساسة!

ولم يكن البارون مفرطًا في الوسامة، ولكنه كان يتفجر حيوية وشبابًا، مكتمل الرجولة، وقد أضفى عليه شعره المصفف ووجهه المتلائم التقاطيع مظهرًا يدعو إلى الإعجاب به. فراق للحسناء ما كان يبديه من حركات منطلقة مرحة، فشعرت بالغبطة لوجودها بقربه، ولم تعد تخشى نظرات عينيه، ثم راح حديث البارون يتدرج شيئًا فشيئًا في جرأة جعلتها تضطرب، وأحست أن كلماته وكأنها أيد تتحسس جسمها. واستيقظت أحاسيسها في فورة جامحة دفعت الدم إلى وجنيتها، بيد أنها ملكت زمام عواطفها وراحت تضحك وكأن شيئًا ما لا يعتمل في داخلها. تضحك في مرح، دون أن تدري أنها كانت تترجم بذلك المرح عن انعطافها إليه بصورة طفلية، وحاولت في بعض الأحيان أن تظهر عدم الرغبة في سماع بعض أحاديثه المكشوفة التي تتجاوز حد الحشمة بإشارة من يدها أو إيماءة من عينها، ولكن طبيعة

الأنثى كانت تغلبها على أمرها، فتنم عن الرغبة في المزيد!

وزالت الكلفة بينهما إلى أقصى مدى، فراحت تسايره في التودد وترد بوعود مبهمة غامضة، بينما كانت عيناها تحملقان فيه. وما هي إلا لحظات حتى طرحت الأنثى سلاحها ورفعت الراية البيضاء إذ بدأت تستسلم بالحديث وبالحركات، وسمحت لنفسها بالدنو منه والالتصاق به فتلامس جسماهما وسرت الحرارة فيهما وكأنها تيار كهربائي، وراحت أنفاسه تلفح أذنيها ومنكبيها بحديثه السحري. وكشأن العاشقين المدلهين لم يحسا بمرور الوقت، فقد استغرقتهما النشوة ولم يوقظهما منها إلا انطفاء بعض مصابيح الردهة، فعرفا أن الليل قد انتصف!

ونهضت الحسناء عن مقعدها، وقد أذهلها ما تورطت فيه، واندفاعها إليه بمثل هذه السرعة والسهولة. صحيح أن هذا اللون من المغامرات لم يكن غريبًا عنها أو جديدًا عليها، ولكنها أدركت بعقلها الباطن الذي أخذ يهيب بها ويوحي إليها، أنها في هذه المغامرة قد اشتطت. وأدركت في جزع وذعر أنها أفلتت زمام نفسها، وأن إحساسًا جديدًا عليها أخذ يسري في وجدانها وكيانها، وينذرها بأنها مقبلة على أمر جلل وصراع بين العقل والقلب. وأحست بما يشبه الدوار وكأن دوامة من الوجل والثمل ولهيب الأنفاس تتقاذفها، فاستولى عليها هلع غامض، لا تدري كنهه ومبعثه، لقد عاشت

لحظات كهذه من قبل، ولكنها لم تكن بهذه الحرارة وهذا التفاعل!

وهمت بالانصراف ومغادرة البارون، فقالت له:

– أتمنى لك نومًا هادئًا. طابت ليلتك، وإلى صباح الغد!

ولم تكن ترغب في الهرب منه هو، بل من هذه اللحظة الحاسمة، ومن مغبة ذلك الاضطراب الشديد الذي لفها وسرى في كيانها، ولكن البارون أمسك بيدها التي مدتها إليه في حنان واستبقاها في لباقة ورقة، ثم راح يقبلها، لا مرة واحدة كما يجرى العرف والتقاليد، بل تعددت القبلات توزعها شفتاه المختلجان على أناملها ورسغها، وتولتها رعشة وانتفاضة حين أحست بشاربه على ظهر يدها، واستشعرت دفئًا لا عهد لها به، فخفق قلبها وتتابعت ضرباته وأحست كأن رأسها يشتعل، وغمرها شعور بألم مبهم، لا تدري مبعثه يعتصرها، فجذبت يدها فجأة من بين يديه!

وتوسل إليها البارون أن تمنحه قليلًا من عطفها قائلًا:

– ألا تمكثين معي لحظات أخرى؟

ولكنها حسمت الموقف وبادرت بالابتعاد على الفور، فأفصحت بذلك في وضوح عن أحاسيسها المضطرمة، لأنها كانت قد وصلت إلى الدرجة التي تسبق الاستسلام المطلق، وأضحت كريشة في مهب الريح، وما عليه لكي ينالها إلا أن يمر عليها بلمسة من بنانه

تسري فيها مسرى الكهرباء.

وأدركت حقيقة ما يعتمل في داخلها، فقد ألهبها الخوف من أن يضمها الرجل ويعتصرها بين ذراعيه، وقد كانت تتمنى ذلك حقًّا، فقد أحست بالحسرة وخذلان النفس لأنه لم يحتويها بين ذراعيه، ثم راح يمطرها بالقبلات ويتشبث بالعناق.

لقد كان من الجائز، بل من المحتمل جدًّا، أن يحدث عندئذ ما تتوق إليه نفسها، وإن لم تدرك ذلك منذ أمد طويل، نعم كان من الممكن أن تعيش هذه المغامرة التي كانت تهفو إليها بجميع حواسها وجوارحها، المغامرة التي تلهث فيها الأنفاس وتمتزج ببعضها بعضًا في حرارة ونشوة، والتي جاهدت وناضلت كي تصدها وتكبح نفسها عن الوقوع فيها حتى الآن. المغامرة العظمى التي تحطم إلى الأبد، لا مجرد النزوات الطارئة ونوازع الانفعال الوقتية!

بيد أن البارون آثر أن يتمسك بعلياء نفسه تبعًا للخطة التي رسمها وأحكم تدبيرها، فلم يشأ أن ينقضها رغم لهفته، ولم يشأ أن يتهافت وينصاع، فقد وثق بأن الصيد أصبح في متناول يده، وإن هي إلا ساعات حتى ينال مشتهاه، فلماذا يتسرع؟ ولماذا ينتهز فرصة ضعفها واستسلامها ويمثل دور القناصة، مستعينًا بنشوة الخمر؟ لقد آثر أن يتمهل في الصيد لأنه يستعذب النضال الذي يؤتي ثمره ويعقبه الاستسلام عن رغبة وطواعية. لقد أيقن تمامًا أن سحره قد سرى في

كيانها وحطم مقاومتها!

وعندما بلغت في صعودها نهاية السلم، توقفت قليلًا، وأطبقت بيدها على قلبها اللاهث كأنها تريد أن تمنعه من الانطلاق من صدرها، لأن أعصابها كانت قد انهارت، ثم تنهدت في ارتياح بعض الشيء لأنها نجت بنفسها من كارثة محققة، ولكن زفرتها نمت في الوقت نفسه عن إحساس بالندم. بيد أن الكارثة التي تتهددها، والندم الذي تستشعره، كانا يساورانها في صورة باهتة وغموض مبهم، وأحست بما يشبه الدوار، فراحت تتحسس طريقها إلى الغرفة مغمضة العينين نصف إغماض، بينما راحت تترنح تحت تأثير ما ألم بها. ولم تستعد رشدها وتستجمع شتات أفكارها وتتمالك أنفاسها إلا حين بلغت باب الغرفة ودلفت إليها، فشعرت بالأمان والطمأنينة.

وعندما فتحت الباب في رفق تراجعت مذعورة، فقد لمحت شيئًا ما يتحرك في ظلام الغرفة، وتوترت أعصابها، وهمت بأن تصيح مستغيثة، ولكنها سمعت صوتًا أثقله النعاس، خافتًا واهنًا كصاحبه يقول:

– وأخيرًا عدتِ يا أماه!

وعجبت لماذا جاء إلى فراشها، فبادرته بالسؤال:

– ماذا أتى بك إلى هنا؟ وماذا تصنع بربك؟

ثم أسرعت نحو الفراش الذي كان الفتى يغوص بين طياته. وأيقظه قدومها فنهض، وجال بذهن الأم أنه مريض، وأنه جاء إلى مخدعها التماسًا لدواء، ولكن الفتى قال في عتب ناعم والنعاس يغالبه:

– انتظرتك طويلًا يا أماه، حتى غلبني النوم!

– ولماذا ظللت مستيقظًا وانتظرتني؟

– لتقصي على قصة الفيلة!

– أية فيلة يا بني؟

وأدركت لتوها ماذا يعني، فقد تذكرت أنها وعدته بأن تقص عليه حينما تعود ما ستسمعه من قصص الصيد والمغامرات، فظل الفتى الساذج على هذا الأمل، وتسلل إلى مخدعها ينتظرها في ارتقاب وثقة، فلما طال به الوقت وطال غيابها، غلبه النعاس فاستسلم للنوم.

وأحنقها هذا التصرف من جانبه ولكنها في الواقع أحست في قرارتها بالسخط على نفسها وبالخجل الذي يعتري من يقترف ذنبًا، وجاهدت لكي تزيح عنها هذا الشعور، فصاحت في الفتى:

– هيا إلى فراشك فورًا أيها الولد العاق!

وتطلع إليها إدجار في خوف ودهشة، ترى ماذا فعل فأغضبها منه وجعلها تحنق عليه هكذا؟ إنه لم يأت ذنبًا يستحق عليه اللوم والتأنيب، بيد أن دهشة الفتى وتلكؤه في السير تنفيذًا لأمرها، ضاعف

من حنقها فنهرته في غلظة:

– هيا إلى غرفتك فوراً!

ولم يكن حنقها في الواقع منصبًا على الفتى، بل على نفسها، لأنها تعرف تمامًا أنها المذنبة!

وانصاع الفتى لأمرها صاغرًا دون أن ينبس بكلمة، وكان متعبًا جد التعب، يغالبه النعاس، واستبد به إحساس واحد هو أن أمه نكثت بوعدها، وأنها جائرة في تصرفها معه ومعاملتها له، ولكنه لم يغضب ولم يثر لأن الإعياء كان قد نال منه وإن استشعر بعض الاستياء الذي جعله يلوم نفسه لاستسلامه للنوم حين كان ينبغي أن يظل مستيقظًا. وبذلك استشعر أنه مازال طفلًا، فأخذ يردد ذلك في نفسه في غيظ، حتى غلبه النوم من جديد، وتولته كراهية شديدة لطفولته!

الفصل السادس

في تلك الليلة لم ينم البارون، فإذا أخذته غفوة تخللتها الأحلام، وندم لأنه لم ينتهز الفرصة التي واتته بالأمس فيذهب في الشوط حتى نهايته. وعندما أقبل الصباح وهبط من غرفته، كانت آثار السهاد بادية على وجهه، فبدا نافد الصبر ضيق النفس. وظهر الفتى فجأة من أحد الأركان، وما إن وقع بصره على البارون، حتى جرى نحوه ثم طوقه بذراعيه الصغيرتين في بهجة وفرح، وراح يمطره بالسؤال تلو السؤال.

لقد غمرت الفتى سعادة لا حد لها لأنه وجد نفسه ينفرد بصديقه، لا تشاركه في هذه الرفقة أمه، وأخذ يتحدث إلى البارون في دماثة ولطف ذاكرًا بأنه كان أحرى به أن يروي أقاصيصه له هو لا لأمه، معللًا ذلك بأن أمه قد أخلفت وعدها له، ولم تنقل إليه الأقاصيص التي سمعتها بعد مغادرته لهما كما وعدته، وراح يلقي إلى البارون بوابل من الثرثرة الصبيانية، حتى برم الرجل بالفتى وبثرثرته، ولم يستطع إخفاء تعكر مزاجه عنه.

وانقلبت بشاشة البارون إلى تجهم، وهو يرد على فضول الفتى

وأسئلته، وضايقه إلحاف الفتى في ملاحقته التي تنطوي على مغزى يوحي بما يشبه الرقابة، واستفساراته التافهة التي ضاعفت من سأمه.

وكان قد ضاق بنفسه عن أن يقضي نهاره في تجوال مع فتى صغير، كما سئم مبادلته تافه أحاديثه، تلك الأحاديث الصبيانية السخيفة، فهفا قلبه إلى الحسناء وتمنى أن ينفرد بها. فتضاعف ضيقه، ولم يستطع مغالبة نفسه فأبدى تبرمه بتلك الصحبة للفتى، ولكن الفتى وقد تأصلت جذور الصداقة في نفسه في براءة الأطفال، بالإضافة إلى أن البارون قد بهره بقصصه الشائقة فملك عليه عواطفه ومشاعره وأيقظ فيه الفضول، أضحى من العسير على البارون أن يحمله على الافتراق عنه وعدم ملازمته.

وراض البارون نفسه على احتمال رفقة الفتى، ريثما يحين الموعد الذي كان بينه وبين الحسناء في تمام الساعة العاشرة، فقد تواعدا واتفقا على الخروج في نزهة، ولذلك أرخى العنان للفتى وتركه على ثرثرته كيفما راق له ذلك، وتظاهر بمطالعة إحدى الصحف، وإن راح يوجه إلى الفتى بين الحين والحين كلمة عابرة أو ملاحظة طريفة على سبيل الملاطفة حتى لا يؤذي شعوره.

وما إن وافت ساعة الموعد حتى كان قد أعد حيلة يتخلص

بها من الفتى، فتظاهر بأنه تذكر فجأة أمرًا مهمًّا، وطلب إلى الفتى متلطفًا أن يتوجه إلى الفندق القريب، وأن يستعلم نيابة عنه عما إذا كان ابن عم له يدعى الكونت جريندهم قد وصل، إذ كان قد بعث إليه يخبره بمقدمه!

وفي براءة الأطفال انطلق الفتى الصغير الساذج عدوًا نحو الفندق الذي أشار به البارون، وقد امتلأ زهوًا وسعادة بأن يكلفه صديقه أداء خدمة وأن يكون في مقدوره أن يقوم بها، مزهوًّا فخورًا بأنه قد أضحى موضع ثقة صديقه، يعتمد عليه في أمر من أموره ويجعله رسولاً شخصيًّا لابن عمه.

فأخذ يعدو دون توقف حتى لهثت أنفاسه، ودون أن يأبه بنظرات الناس الذين راحوا يرمقونه في دهشة وعجب، وحرص على كسب ثقة البارون وحسن ظنه به، فأراد أن يثبت له مدى إخلاصه ونشاطه وإقباله على تلبية ما عهد إليه به.

ووصل إلى الفندق واستعلم عن الكونت، فقيل له أنه لم يصل بعد، بل ليس لدى إدارة الفندق نبأ عن موعد قدومه، فعاد يحمل هذه الإجابة، وقد ضاعف من سرعته في الجري عن ذي قبل. ووصل وقد كادت أنفاسه تتوقف، بيد أنه لم يلمح للبارون أثرًا، إذ كان قد غادر الردهة، ويمم الفتى شطر غرفة البارون،

فلعله عاد إليها لأمر ما، وطرق بابها في لهفة، ولكن دون جدوى.

فهرول إلى قاعة الجلوس، ثم إلى المقهى، وانتهى به المطاف إلى مخدع أمه ليسألها المشورة فيما ينبغي أن يفعل، وحز في نفسه أنه لم يجدها هي الأخرى، وبلغ به اليأس والضيق، فاستفسر من البواب في يأس، فأنبأه بأن أمه خرجت في رفقة البارون منذ دقائق، فأثار هذا النبأ في نفس الفتى مزيجًا من الدهشة والأسى!

وراح الفتى ينتظر أوبتهما في صبر نافد، وفي براءة الأطفال لم يساوره أي شك من ناحيتهما، واعتقد أنهما لن يلبثا أن يعودا بعد دقائق قلائل، وجال بخاطره أن البارون أراد أن يتعجل أنباء وصول ابن عمه الذي أرهق الصغير نفسه عدوًا في الذهاب والإياب لكي يأتي بها على عجل وينبئ بها البارون، ولكن الدقائق راحت تترى، والساعات تتتابع وتتوالى، دون أن يعودا، فأخذ القلق يناوش المسكين.

والحقيقة أنه استشعر القلق منذ دخل ذلك الشخص الغريب في أفق حياته، وأقحم نفسه متغلغلًا مع أمه ومعه. إن أية أحاسيس أو انفعالات – مهما كانت خفيفة أو طفيفة– تطبع أثرًا عميقًا على الأفئدة اليافعة والقلوب الغضة.

ولهذا أثرت هذه الصدمة في نفس الفتى وفي وجدانه، وسرعان ما عاودته تلك الاختلاجة العصبية التي اعترت جفنيه وراحت تهزهما، واشتد شحوب وجهه!

وظل الصغير ينتظرهما طويلًا، يحدوه الأمل في قرب عودتهما، ثم أخذ القلق والاضطراب يتسللان إلى نفسه، حتى كاد ينفجر بالبكاء. وحتى ذلك الحين لم تكن الشكوك قد ساورته، أو أساء بهما الظن، وقد خشي -بسذاجته وبثقته المطلقة بصديقه- أن يكون قد أساء فهم المهمة التي كلفه بها البارون، فراح يتعذب لمجرد هذا وأخيرا عاد الرفيقان، ورآهما، وعجب أشد العجب إذ وجدهما يتبادلان الحديث وقد تجلت عليهما وعلى حديثهما البهجة والغبطة والمرح، دون أن تبدو عليهما أية دهشة بخصوصه، وكأن غيابه عنهما لا يؤلمهما، وضاعف من عجبه أن البارون لم يسأله عن المهمة التي كان قد وكل إليه القيام بها، بل قال له:

- لم نتمكن من انتظارك فسبقناك يا داج، وقد ظننا أننا سنلتقي بك في الطريق.

وفي سذاجة الأطفال خشي إدجار أن يكون قد جشمهما عناء البحث عنه، فراح يؤكد لهما أنه سلك الطريق الرئيسي دون غيره، وحين رغب في معرفة الطريق الذي سلكاه، وهم بأن يسأل

عن ذلك، نهرته أمه في غلظة قائلة:

–كفى ثرثرة أيها الشقي، ليس للأطفال أن يزعجوا الناس هكذا.

وقد أثارت بردها هذا غضب الفتى، فاحتقن وجهه. وآلمه وحز في نفسه جدًّا أن تعاود أمه إيذاء شعوره وخدشه أمام صديقه البارون، وتساءل فيما بينه وبين نفسه، ترى لماذا تتعمد ذلك؟ ولماذا تجنح إلى الحط من شأنه وتحقيره وزجره هكذا في غلظة وقسوة وإظهاره بمظهر الصغير التافه الأبلة؟! ومع أنه قد أفسح لهما المجال، فلا ريب في أنها تغار منه، وتحاول أن تفصل بينه وبين صديقه، بل لعلها هي التي أشارت بسلوك طريق آخر غير الطريق الذي سلكه حتى لا يلتقيا به.

على أن المسكين تشبث بالعناد، وعقد العزم على ألا يدعها تخدش شعوره بعد الآن، متوعدًا بأن يثبت لها ذلك، وبأنه سيقاومها. وأوحى إليه تفكيره ألا يتكلم مع أمه على مائدة الطعام، وأن يقصر حديثه على البارون فقط!

ولم يتنبه الاثنان إلى تحدي الفتى وصمته، وكأنهما لا يشعران بوجوده، وقد كان حديثهما بالأمس لا يتناول سواه. فقد نأيا عنه وراحا يتحدثان ويتغامزان ويضحكان ويتداعبان وكأنه ليس معهما،

أو كأنه طيف لا يريانه، فغلى الدم في عروقه واحتقن وجهه، وأحس بغصة تكاد تخنقه وشملته رجفة وهو يذكر ضعفه وعجزه. وهكذا قدر له أن يبقى أمامهما كالتمثال، ساكنًا لا يتكلم ولا يتحرك، يتطلع إلى أمه وهي تغتصب منه صديقه الوحيد الذي أفعم قلبه بحبه، فأضحى عاجزًا عن الدفاع عن نفسه، لائذا بهذا الصمت الرهيب!

وحفزه ذلك على أن ينهض، وأن يهوي على المائدة بقبضتيه، لعلهما يتنبهان إليه وإلى وجوده، ولكنه تمالك نفسه ورباطة جأشه وكظم غيظه، واكتفى بأن توقف عن تناول الطعام، ومضت على ذلك فترة طويلة دون أن يحظى بلفتة من أحدهما، فلم يعره أحدهما أي اهتمام، وظلت الأم على غبائها هذا، أو لعله تغابيها، إلى أن قدم إليهم آخر طبق من أطباق الطعام، فالتفتت إلى الفتى، وإذ رأت الطعام لا يزال أمامه لم يتناول منه إلا القليل، سألته عما إذا كان يشكو مرضًا أو ألمًا، فقال الفتى يحدث نفسه:

– يا له من أمر غريب، إن دائرة تفكيرها لا تتعدى مجرد الاطمئنان على صحتي، وعما إذا كنت مريضًا أم لا، وما عدا ذلك فأمر تافه في نظرها.

ثم أجاب أمه في لهجة لا تخلو من جفوة:

– ما بي ميل إلى الطعام.

ولم تكلف الأم نفسها عناء معرفة السبب. إذن حيلته لم تؤت ثمرتها المرجوة، ولم يعد في مقدوره أن يجتذب انتباههما إليه. وخيِّل إلى الفتى أن البارون قد محاه من ذاكرته وأنه لا يعترف بوجوده، لأنه لم يوجه إليه كلمة ما، فخنقت الفتى العبرات وكاد يجهش بالبكاء، وأخيرًا لجأ إلى حيلة من حيل الأطفال عندما يريدون التخفيف من عذابهم والتنفيس عن أنفسهم، فتناول خلسة المنشفة التي أمامه وراح يجفف بها الدموع التي طفرت بها عيناه وانسابت على وجنتيه وشفتيه دون أن يفطن أحدهما إلى ما آلت إليه حاله!

وانتهوا من تناول طعام الغداء، فشعر الفتى بشيء من الراحة وتنفس الصعداء، وخلال الأكل اقترحت الحسناء أن يقوموا بنزهة في عربة تذهب بهم إلى "ماريا شوتز"، فتضايق الفتى حين سمعها تقترح ذلك، وجز على شفتيه غيظًا، لأن معنى ذلك أن أمه لم تعد ترغب في أن يخلو الفتى إلى صديقه لحظة واحدة، وانفجر مرجل الغضب بين ضلوع الفتى حين قالت له أمه وهي تنهض عن المائدة:

– أغلب الظن أنك نسيت كل ما تلقنته في المدرسة يا إدجار،

أليس من الأفضل أن تبقى لتستوعب دروسك؟!

وعندئذ أطبق الفتى قبضتيه في حنق بالغ، فقد عادت إلى الحط من شأنه في حضرة البارون، وتصويره في قالب الطفل والجهر بذلك أمام الناس، وأن مكانه في المدرسة لا بين من هم أكبر منه، إلا إذا كان ذلك من باب الملاطفة وعلى سبيل التسامح. بيد أنه في هذه المرة شعر بأنه أوذي أكثر من اللازم وفوق طاقة احتماله، فانعقد لسانه ولم يجب بنعم أو لا، بل أولاهما ظهره. فاستدركت أمه قائلة وقد رسمت على شفتيها ابتسامة:

- هل يضيرك هذا أيضًا؟

ثم تحولت إلى البارون تخاطبه:

- هل ترى في انصرافه للدرس ما يضايقه؟

وأحس الفتى حين سمع ذلك كأن ضربات قلبه قد توقفت.

وعلق البارون على استفسار الحسناء قائلًا:

- إن قضاء ساعة أو بضع ساعات في التحصيل الاستذكار لا يبعث على التذمر أو الضجر!

إذن فقد اتفقت آراؤهما تجاهه، وتحالفا ضده. واحتدمت

فورة الغضب في عيني الفتى، فاندفع يقول بأقصى ما وسعته قوته الواهنة:

– تعليمات أبي أن أركن إلى الراحة التامة في هذا المكان، فهو يريد أن أستريح وأستجم في فترة نقاهتي.

وتمسك الفتى بتعليمات أبيه ذاكرًا بأنها واجبة التنفيذ والاحترام، وكانت لهجته عندما اندفع يطلق جوابه كالقذيفة تنم عن تهديد وتوعد. ولاحظ الفتى أنه حين ذكر أباه في سياق كلامه، بعث ذلك شعورًا من الذعر والاستياء في نفس أمه والبارون، فقد غضت الأم من بصرها وأشاحت بوجهها وراحت تنقر على المائدة بأصابع مرتعشة متوترة، وران على ثلاثتهم صمت رهيب كئيب. وأراد البارون أن يعالج الموقف ويخفف من حدة الأمر، فتصنع الابتسام وقال:

– لك ما تريد يا داج، وأنا من ناحيتي لا تنتظرني دروس وامتحانات، فقد انتهى أمري ورسبت في كل المواد منذ أمد طويل.

ولم ترق هذه الفكاهة لإدجار، فقد بدت له سخيفة، فلم يبتسم، وإنما رشق البارون بنظرة ثاقبة حادة كأنه يتفحصه لينفذ إلى

أغوار نفسه. ترى ماذا حدث حتى انقلبت الصلة بينه وبين البارون إلى النقيض؟ هل جد أمر ما يستغلق عليه فهمه أو إدراكه؟ وزاغت عينا الفتى وشردتا، وتتابعت نبضات قلبه اليافع في خفقات متواصلة، فقد بدأت الشكوك تساوره وتنتهبه، وغاب في حلم كئيب من أحلام اليقظة.

الفصل السابع

راحت الهواجس تناوش الفتى، والأفكار المقبضة يكاد رأسه الصغير ينفجر من حدة وطأتها، وهو مستكين في مواجهتهما في العربة. لماذا لم يظلا على ودهما وصفائهما لي؟ لماذا تغض أمي بصرهما كلما تطلعت إليها؟ ما سر هذا المرح الذي يلفهما والبهجة التي ينتشيان بها؟ لقد أحجما عن مخاطبتي كما كانا يفعلان بالأمس وقبل الأمس، بل يتراءى لي أن وجهيهما قد تغيرا وأنهما ليسا الوجهين المعهودين.

فما أشد الحمرة التي تصطبغ بها شفتا أمي، لعلها استعانت بطلاء ما لتجعلهما تزهوان هكذا، في حين أنها لم تهتم قبل الآن بهذا. والبارون أيضًا، أصبح لا يبش في وجهي بل يعتريه العبوس كلما رآني وكأنني اقترفت ما آذيت به شعوره. ما أجرمت قط في حقهما، ولم تبدر مني لهما كلمة إساءة. إذن فلست أنا علة هذا التبدل، بل هما مصدره، ويخيَّل إليَّ أنهما يعيشان في جو من الخفاء، لا يجرؤان على الجهر بتصرفاتهما حتى ليخفي الواحد منهما عن الآخر بعض ما به، وتخللت أحاديثهما الألغاز والطلاسم، بل قل كلامهما وحل بهما الوجوم محل الضحكات، والتجهم محل المرح. فلا بد أنهما ينوءان بسر يحرصان على إخفائه عني، بيد أنه لا بد لي من أن أكتشفه، ومن يدري

لعلي أعرفه، فقد يكون السر الذي يحرصان على أن يجعلاني بمنأى عنه هو السر الذي تعالجه الكتب وتصوره التمثيليات عندما يقف الرجل والمرأة متقابلين، ويرسلان عذب الأغاني وقد بسط كل منهما ذراعيه للآخر، فيتعانقان ويتباعدان! تمامًا كما حدث بين معلمتي وأبي من سلوك يتنافى مع الآداب، مما أدى إلى إعفائها من عملها.

هذه حلقات متصلة شديدة الشبه بعضها ببعض، وإني لأحس بذلك وإن كنت لا أدرك كنه هذا الإحساس، وكم أتلهف إلى كشف النقاب ومعرفة هذا السر الخفي، وكم أتلهف إلى تحطيم الحاجز وقهر ما يستغلق عليَّ! بل أتلهف أكثر وأكثر إلى اليوم الذي أتخطى فيه مرحلة الطفولة، فتنفتح أمامي مغاليق الأمور ولا يكون للتغرير أو الخداع منفذ إلى عقلي ونفسي. إذن فلأبدأ العمل الآن وإلا فسأظل أتخبط في الجهد بأمور الحياة مدى العمر! ولا بد لي من الوصول إلى هذا السر الخطير!

وتغضن وجه الفتى بالتجاعيد، فبدا على هزاله ويفاعته كأنه شيخ طاعن. وقد استغرق في تفكير عميق كأنه يعالج مشكلة حرب عالمية، دون أن يمتع نفسه أو يأبه بما حوله من جمال الطبيعة المنبسطة بألوانها الساحرة وجبالها الشامخة وغاباتها المترامية وأوديتها التي أضفى عليها الربيع بهاء أخاذًا. لم يجتذب الفتى شيء من ذلك وتعلق بصره وتفكيره في الوجهين اللذين أمامه، وراح يجهد نفسه ليستشف السر الكامن في

أعماق عيونهما.

ولا ريب في أن الشكوك إذا تسللت إلى الإنسان، في صورة ملتهبة، فإنها تصقل القريحة وتشحذ العقل وتنير الطريق للفكر وتفتح حتى الذهن الذي لم يكتمل نضجًا فتكشف له عن الغامض والمستغلق مما يثير الهواجس. وإذا يد القدر تتدخل، وبدفعة منها تتجلى الحقيقة ويتكشف المستور للفتى اليافع!

وشعر إدجار فجأة أنه قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من ذلك اللغز المستغلق، من ذلك السر الخطير، وقد أحسه ماثلًا أمامه وإن كان بعيدًا عن متناول وعيه مستعصيًا على إدراكه، ولكنه في الوقت نفسه موقن أنه جد قريب منه. وأثار هذا الإحساس حميته، فأضفى عليه مسحة من الهيبة والوقار. لقد أدرك دون أن يفطن أنه استكمل مرحلة الطفولة!

واستشعر البارون وأم الفتى بوطأة ضغط خفية، وقوة مقاومة صامتة، لم يستطيعا إدراك كنهها. وما جال بخاطرهما أن الفتى مبعثها، وخيِّل إليهما أن العربة تضيق بثلاثتهم، وأخذت عينا الفتى اللتان ترسلان نظرات ملتهبة في حرارة تنبعث من أغوارهما، تثيران في أمه والبارون إحساسًا بالضيق والاضطراب، فلم يجرؤا على تبادل الحديث إلا نادرًا، ونادرًا ما تبادلا النظرات، وقد زايلهما المرح الذي كان يشيع في أحاديثهما من قبل، كانا ينغمسان في حمأة التبذل في تحفظ، حين

يتبادلان عبارات الغزل واللمسات الخفية ونظرات النهم، ولكنهما كلما همَّا بشيء من ذلك اصطدما بنظرات الفتى الهادئة في صمت وعناد.

واشتدت وطأة هذا الصمت على نفس الأم، فأخذت تختلس النظر إلى الفتى في حذر، وإذ رأته قد زم شفتيه، قفزت إلى ذهنها صورة أبيه حين يكون محنقًا أو يستبد به انفعال، وشعرت بالضيق لتذكرها زوجها في الوقت الذي تنتشي فيه بمغامرة غرامية مع البارون، وقد خيِّل إليها أن الفتى بعينيه المتربصتين ونظراته الثاقبة وبالاكتئاب البادي على جبينه الشاحب، إنما هو شبح عهد إليه أن يراقبها ويراقب ضميرها، فأثار ذلك في نفسها شعورًا بأنها لا تطيق وجود الفتى معها في تلك اللحظة!

وتلاقت عينا الأم والفتى فجأة، فغض كل منهما بصره إذ اكتشف كل منهما أنه يرقب الآخر خفية، وقد كانت الثقة بينهما متبادلة حتى هذه اللحظة. أما الآن فقد اعتراها الشك هذه الثقة، فتأثرت علاقتهما، وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة غريبة، ويجعل حاجزًا بين مصيريهما، وتولد في قلب كل منهما شعور بالكراهية المستترة نحو الآخر، شعور جديد وغريب عليهما حتى أنهما لم يجرؤا على الإفصاح عنه أو إظهاره!

وعادت العربة بهم إلى الفندق، وعندما وقفت عند الباب تنفس

الجميع الصعداء، فقد كانت نزهة غير موفقة، خلت من البهجة والمتعة والمرح، وقد أحس ثلاثتهم بذلك دون أن يجرؤوا على الجهر به.

ونزل الفتى من العربة قبل الاثنين، وتظاهرت أمه بأن صداعًا ألم بها، فبادرت لائذة بمخدعها، فقد كانت جد مرهقة تهفو إلى الخلوة بنفسها، ونقد البارون الحوذي أجره، ثم نظر إلى ساعته وسار نحو الردهة دون أن يأبه بالفتى الذي وقف في مكانه، بل سار البارون أمامه، في خطوات رشيقة متئدة يتخطر بذلك القوام الفارع الذي كان حتى الأمس موضع إعجاب الفتى. سار في طريقه لا يلوي على شيء كأنه لا يعرف الفتى، أو أنه غريب عنه!

وشعر الفتى بغصة مريرة وكأن حجرًا ثقيلًا انقض فوقه فحطم كيانه، حين رأى ذلك التصرف من جانب صديقه الذي أحبه بكل جوارحه ومن أعماق قلبه، وشعر بخيبة أمل شديدة عندما ابتعد عنه البارون دون أن يوجه إليه كلمة أو عبارة، مع أنه لم يُسئ إليه، ولم يقو المسكين على تحمل ذلك في رباطة جأش عانى كثيرًا للاحتفاظ بها، فأحس بأنه ارتد طفلًا تافهًا كما كان، ثم راح يعدو خلف البارون على الرغم منه في خطى حثيثة مضطربة، ولحق به ووقف أمامه عندما همَّ بالصعود، وقال له بصوت مبحوح كأنه صادر من أعماق سحيقة والدموع تكاد تطفر من عينيه:

– أي ذنب جنيته حتى تهملني هكذا وتتجاهل وجودي؟ لماذا تبدلت

معاملتك لي إلى هذه الجفوة؟ وكذلك أمي؟ ماذا يدفعكما إلى إقصائي عنكما؟ هل تضيقان بي؟ أو هل بدر مني ما يستوجب ذلك؟!

وسرى هذا العتاب المشرب بالتأنيب مسرى السم في نفس البارون، وشملته رجفة على الرغم منه، فقد كان في نبرات الفتى ما جعله يستشعر الخجل، واضطر أن يتلطف معه، كما أخذته الشفقة على ذلك الصغير البريء، فتصنع الابتسام تلطفًا وقال له:

– إنك واهم يا صغيري داج، وكل ما في الأمر أنني كنت منحرف المزاج اليوم. إنك فتى ظريف وقلبي يحبك كثيرًا!

قال البارون ذلك وهو يداعب شعر الفتى، بيد أنه أشاح عنه بنظره قليلًا، ليتفادى نظرات التوسل التي أرسلتها عينا الفتى المغرورقتان، وبدت له اللعبة التي يمثلها عسيرة ثقيلة على نفسه، فقد استشعر الخجل لأنه يتلاعب بعواطف هذا الفتى ويعبث بحبه له بهذه الطريقة المعيبة، وأثر فيه أبلغ الأثر، وحز في نفسه سماع هذا الصوت الطفلي وقد خنقته العبرات، فقال له في حنان وعطف:

– ألا تشعر بالتعب يا داج؟ هيا إلى فراشك وسيعود الصفاء إلى علاقتنا في المساء

– على ألا تصرفني أمي إلى الفراش مبكرًا.

– لك هذا يا داج! ليطمئن بالك، فهيا إلى غرفتك الآن، وسأذهب أنا لأغير ثيابي وأستعد للعشاء.

وغمرت الفتى موجة من الفرح، بيد أن قلبه ما لبث أن عاوده خفقانه في شدة وعنف. فقد أحس المسكين أن عشر سنوات أضيفت إلى عمره، وأنه يستشعر إحساسًا لا عهد له به هو الشك!

وظل الفتى ينتظر اللحظة الحاسمة، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة حين كانوا قد اتخذوا مقاعدهم حول المائدة، ولاحظ أن أمه لم تتصرف معه كما تصرفت بالأمس، فلم تشر عليه بالتوجه إلى فراشه، فساوره قلق مبهم لذلك، وتساءل فيما بينه وبين نفسه لماذا تخلت عن عاداتها التي تتبعها في حرص ورتابة ودقة، فسمحت له بالسهر حتى هذا الوقت.

هل أنهى إليها البارون برغبته التي أبداها له وهو يحدثه؟ وندم أشد الندم لأنه ألقى إلى صديقه بمكنون نفسه في صراحة وثقة. وما إن وافت الساعة العاشرة حتى نهضت أمه بغتة واستأذنت في الانصراف، وعجب الفتى أن يرى البارون لا يدهش لهذا الانصراف المبكر، بل لم يحاول أن يستمهلها ويرجوها البقاء فترة أخرى. فاشتد وجيب قلبه وفاضت نفسه بالأسى.

وتجاهل الفتى هذه الملاحظة وتظاهر بالسذاجة، وسار مع أمه دون اعتراض أو توسل. بيد أن عينيه زاغتا فجأة، فقد حانت منه التفاتة مباغتة فرأى أمه تلقي إلى البارون نظرة ذات مغزى من خلفه، نظرة التواطؤ على أمر خفي. إذن لقد نكث البارون وعده، وهذا ما جعله لا يبدي أي اعتراض على انصراف أمه المبكر. فقد رسما الخطة: أن يأوي الفتى إلى فراشه في جو من هدوء البال والاطمئنان حتى لا يكون مبعث ضيق لهما في الغد، وتمتم إدجار في خفوت:

– يا له من نذل حقير!

وتناهى صوته إلى سمع أمه رغم خفوته فسألته:

– ماذا تقول؟

فجز الفتى على شفتيه غيظًا، وأجاب في اقتضاب:

– لا شيء!

لقد جد عليه جديد، وأضحى له ما يشغله، وما يشغله سر من الأسرار، وهذا السر هو المقت والحقد والكراهية إلى أقصى مدى، يكنها ليس للبارون وحده، بل ولأمه أيضًا!

الفصل الثامن

هدأت نفس الفتى فلم يعد نهبًا للقلق، فقد تولد فيه إحساس واضح بالكراهية. ومن ثم راح يستطيب الوجود معهما رغم أنه يعلم يقينًا أن ذلك يضايقهما، بل كان يستشعر المتعة في مضايقتهما، وبالعداء السافر الذي يواجههما به في حدة وعنف، وكان البارون هو الهدف الأول لسهام الفتى، فعندما تلطف معه وألقى إليه بتحية باسمة في صباح اليوم التالي، تعمد الفتى ألا يتطلع إليه، وظل جالسًا في مقعده واكتفى برد التحية في فتور.

وسأله البارون عن أمه، وعما إذا كانت قد غادرت مخدعها وهبطت إلى الطابق الأرضي، فأجاب في كلمات مقتضبة دون أن يرفع عينيه عن صحيفة كان يقرأها قائلًا:

– لا علم لي بذلك!

ودهش البارون لهذا التصرف من جانب الفتى، وتساءل فيما بينه وبين نفسه عن مغزى ذلك، ثم هتف فجأة قائلًا:

– لعلك لم تنل قسطًا من الراحة كافيًا في نومك يا إدجار، أليس الأمر كذلك؟

وظن أن هذا التلطف كفيل بأن يعيد الجو إلى سابق عهده، ولكن الفتى التزم خطة الاقتضاب في القول، فأجاب قائلًا:

- لا!

ثم عاود الاستغراق في قراءة الصحيفة، فما كان من البارون إلا أن هز كتفيه استخفافًا بالفتى، وقال وهو يبتعد عنه:

- يا لك من فتى عقيم!

ومضى في سبيله لا يلوي على شيء.

وكانت هذه بمثابة الشرارة أو الطلقة الأولى لمعركة فاصلة، فقد انتهج الفتى التحفظ والفتور في علاقته بأمه، فأبى في تأدب أن يذهب إلى ساحة التنس عندما ألحت عليه في ذلك، وكان في زم شفتيه، وفي تلك الابتسامة الباهتة الصفراء، ما ينم عن أنه قد بلغ من الإدراك بحيث لا يرتضي أن يخدعه أحد مهما كان ذلك الأحد. وبعد لحظة قال لأمه وهو يحدق في عينيها ويتصنع الحياء:

- حبذا لو أخذتماني للنزهة معكما.

وأثار هذا الجواب أمه وبعث في نفسها الاستياء، وبدا عليها اضطراب وارتباك لم يخفيا عن عين الفتى اليقظة، فقد تظاهرت بأنها تبحث عن شيء تفتقده، وقالت:

- إذن فانتظرني هنا حتى أتناول إفطاري.

ولم يعترض الفتى وانتظر، ولكن عجلة شكوكه كانت تدور في سرعة ويقظة متحفزة، فقد شعر من أعماقه بما يدفعه إلى تحليل وتعليل كل لفظ ينطق به الاثنان للبحث عما يحمله من مغزى ونوايا، وكانت نظرته ثاقبة بحيث تمنحه التوفيق فيما يفعل، وقد هداه تفكيره ألا ينتظر في الردهة كما أشارت عليه أمه، بل آثر أن يقف في الطريق، في موضع يمكنه من أن يرقب كافة الأبواب، وليس باب الخروج وحده.

فقد أوحت إليه الغريزة بأنهما يدبران خدعة، فحزم أمره على ألا يتركهما يفلتان، ثم توارى خلف بعض الأخشاب متمثلًا بما قرأه في بعض القصص، واستشعر الرضا عن خطته، فابتسم حين لمح أمه تتسلل من الباب الجانبي بعد نصف ساعة تقريبًا وقد أمسكت بيدها باقة من الأزهار والورود، ثم تبعها شريكها الخائن!

وبدا المرح في أساريرها، ولا ريب أنهما استشعرا السعادة إذ ظنَّا أنهما أفلتا منه، وتناهى إلى سمعه حديثهما وضحكاتهما وهما في طريقهما إلى الغابة. وأتت اللحظة الحاسمة التي يترقبها الفتى، فغادر مخبأه وسار نحوهما وئيدًا كما لو كان لقاؤه لهما جاء مصادفة، وأخذ يتشفى ويستمتع في الوقت نفسه بما أحدثته هذه المباغتة فيهما، إذ كانا قد ذُهلا بالفعل فأخذا يتبادلان نظرات الفزع. وتقدم الفتى بخطى بطيئة دون أن يحول عنهما عينيه الساخرتين، وعندئذ قالت أمه:

– أنت هنا، وقد بحثنا عنك في أرجاء الفندق يا داج!

فأخذ الفتى يتحدث إلى نفسه قائلًا:

– يا للكذب المشكوف!

بيد أن شفتيه لم تختلجا، فقد أطبقتا على سر حقده.

وظهر التردد على الجميع، وهم يختلسون النظر إلى بعضهم البعض في توجس وترقب، ولم تلبث المرأة، وقد بلغ منها الاستياء، أن تصنعت الهدوء وقالت وهي تعبث بزهرة مما في يدها:

– هلم بنا نتنزه!

بيد أن دهشة خفيفة سرت في طرف أنفها تنم عن فورة غضب جهدت في كبته، وظل الفتى ينظر إلى الفضاء المحيط به كأنها لا توجه إليه الكلام، وظل هكذا إلى أن شرعا في السير، فسار معهما. وحاول البارون أن يثنيه عن ذلك بحيلة ابتدعها، ولكن الفتى رشقه بنظرة ازدراء وقد مط شفتيه إمعانًا في ذلك فقد بدأت كراهيته الطاغية تظهر سافرة!

ومما لا ريب فيه أن وجود الفتى كان مبعث ضيق لهما، ثقلت وطأته عليهما أثناء السير حتى لقد أطبق كل منهما قبضتيه كأنهما سجينان وهو حارسهما، وظل الفتى هادئًا صامتًا، ومع ذلك فقد تضاعف ضيقهما به ولم يعودا يحتملان وطأة نظراته الثاقبة وعينيه اللتين راحت الدموع تترقرق فيهما، وذلك الانقباض الذي ألم به

والذي كان يحول دون أية محاولة من جانبيهما للتودد إليه. وفجأة قالت الأم وقد ضاقت به وبتلك الرقابة ذرعًا:

– لماذا تسير هكذا وراءنا؟ تقدمنا ولا تلاحقنا، فإن ذلك يحطم أعصابي.

ولم يعترض الفتى وامتثل لأمرها، ولكنه كان يستدير متطلعًا إلى الخلف بين الفينة والفينة ينتظرهما كلما بعد عنهما، مرسلًا إليهما نظرة زاخرة بالمكر والدهاء ليشعرهما بمبلغ كراهيته وحقده التي لم تخف عليهما.

كان صمت الفتى ونظرة العداء والحقد التي يرشقهما بها بمثابة الخنجر النافذ إلى قلبيهما، فكانت تحبس الكلام في حلقيهما. ولم يجسر البارون على المضي في مطارحتها الغرام أو مداعبتها ومغازلتها بل أحس وهو يكاد ينفجر من الغيظ بأن الصيد لن يلبث أن يفلت من يده، وأن جذوة الشهوة التي أذكاها فيها وبذل في سبيل ذلك شتى الأحابيل، لن تلبث أن تخمد تحت وطأة توجسها من ذلك الفتى البغيض. وكم عالجا استئناف الحديث، ولكنه كان يستعصي عليهما، فلاذا بالصمت قانعين بإرهاف السمع لحفيف الأشجار ولوقع خطواهما المتعثرة!

وشملت الكراهية ثلاثتهم، فكان الفتى وقد عرف غدر الشريكين، يستعذب غضبهما العاجز الذي كان منصبًّا عليه، وأخذ

بين الحين والحين ينظر إلى البارون في سخرية، فيسمعه يتمتم ببعض الكلمات التي لا يجد في نفسه الجرأة على الجهر بها، كما كان يرقب في اغتباط أمه وقد استشاط غضبها، واستشف محاولتهما لتلمس خدعة أو حيلة يستطيعان بها إقصاءه وتجنب مراقبته، دون أن يوفَّقا. فقد اشتد حقده وعداؤه، فأحكم خطته بدقة لا تسمح لهما بمنفذ!

وفجأة قالت الأم، وقد عيل صبرها:

– لنعد الآن.

لقد أحست التعسة بانهيار أعصابها، وبأنها لم تعد قادرة على تمالك نفسها، وأنه لا بد لها من أن تتصرف على أي وجه حتى لا يطغى عليها هذا العذاب فتنفجر في البكاء. وحين سمع إدجار منها ذلك، قال في بلادة وهدوء:

– هذا عجيب ومؤسف في الوقت نفسه، فإن الطقس بديع يحفز إلى الاستزادة من النزهة!

وأدركت الأم كما أدرك البارون أنه يسخر منهما ويتعمد إيذاءهما، بيد أنهما لم ينبسا ببنت شفة. فقد تعلم هذا الفتى كيف يضبط زمام نفسه، ولهذا لم يبد على أساريره ما يشي بتلك السخرية اللاذعة التي قذفهما بها.

واتخذ الجميع طريقهم إلى الفندق وكأن على رءوسهم الطير فلم

ينطق أحدهم بكلمة طول الطريق، وإذ خلت الأم إلى الفتى في مخدعها، تخلت عن رباطة جأشها ورزانتها، وراحت تنفس عن نفسها وتفثأ غيظها، فطوحت بقفازها ومظلتها في حركة استياء، ولاحظ الفتى أنها أفلتت زمام نفسها، وأن تصرفها على هذا الشكل يسري عنها، في الوقت الذي كان يتوق فيه إلى أن تزداد ثورة واحتدامًا، ومن ثم لم يبرح الغرفة، بل ظل بها ليذكي جذوة هياجها وانفجارها، وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وتجلس حينًا وتنقر على المائدة بأناملها حينًا آخر، وإذ وصلت فورتها إلى القمة صرخت قائلة:

– ما أشد إهمالك لشعرك، وما أبشع قذارتك ؟! ألا تخجل من الظهور أمام الناس بهذه الصورة؟

وراح الفتى يصفف شعره دون أن يتكلم، فأثارها هذا الصمت الثقيل الذي اقترن بابتسامة ساخرة، فأحست برغبة ملحة في أن تنهال عليه صفعًا ولطمًا، وما لبثت أن صرخت في وجهه:

– اغرب عن وجهي واذهب إلى غرفتك!

إنها لم تعد تطيق وجوده قريبًا منها. وابتسم الفتى، ثم خرج!

لقد أضحيا يرتعشان أمام الفتى، يخشيان وجوده معهما والتعرض لنظرات الحقد والرقابة التي يرشقهما بها، وكلما ازداد وميض عينيه، اشتدت وطأة الإثارة في نفسيهما. لقد راح الفتى الصغير يصلي

خصميه العاجزين عذابًا أليمًا بقسوة طفلية فيها الكثير من الضراوة والوحشية.

وظل البارون مسيطرًا على أعصابه قادرًا على كظم غيظه وغضبه لأنه كان يأمل في حيلة يتغلب بها على الفتى، جاعلًا نصب عينيه هدفه الوحيد مع حسنائه. أما هي فقد انهارت أعصابها وأخذت تفلت زمام نفسها شيئاً فشيئاً، وكانت تتلمس لغيظها تنفيسًا، فلا تني عن زجره والجهر بعيوبه. فكانت تنهره بغلظة أثناء تناول الطعام فتقول له مؤنبة:

- لا تعبث هكذا بالملعقة! ليس ذلك من آداب المائدة! إنك غير مؤدب! لا تستحق شرف الجلوس مع من هم أكبر منك!

وكان إدجار يقابل ذلك ببلادة وفتور ولا يرد، بل يكتفي برسم ابتسامة على شفتيه، وقد مال برأسه قليلًا، لأنه يعلم أن صيحاتها تلك تنم عن يأسها! وملأه الزهو أن يرى الاثنين يفضحان أمرهما بهذه الطريقة. أما هو فقد اكتست نظراته بالهدوء، ولو أنه انتهج ذلك من قبل لكان من الجائز أن يجنح إلى الفظاظة لإثارتهما، ولكن المرء يتعلم الكثير عندما يستشعر الكراهية والحقد، ولذلك تعلم أن يقنع بالصمت، بالصمت المطبق!

وظل الفتى متمسكًا بصمته المرهق الشديد الوطأة، فراحت أمه تصرخ من حدة وقعه في نفسها، وعجزت عن احتمال تلك الحال.

وعندما انتهوا من تناول الطعام، نهضت كما نهض البارون، فأراد الفتى أن يتبعهما في حركة عادية طبيعية، لا تنم عن قصد أو تعمد. فهال ذلك الأم وانفجرت، ونسيت كل تحفظ واتزان، ونفثت كل ما في نفسها، كان وجود الفتى على هذا الوضع الوقح بمثابة النار التي تصليها وتعذبها، فانتفضت في فورة غيظها انتفاض من لدغته عقرب، وصاحت:

– كيف تلاحقني هكذا كأنك طفل لم يشب بعد عن الطوق؟ إنني لا أحب أن تتبعني كالظل! ليس مكانك بين من هم أكبر منك سنًّا. تعلم هذا، والتمس من أسباب التسلية ما يلتمسه أمثالك من الأطفال. تصفح كتابًا أو صحيفة أو مجلة، أو افعل ما يحلو لك، ولكن دعني قليلًا، فإنك تثيرني وتحطم أعصابي إذ تلاحقني بوجهك الكئيب البغيض!

هكذا أفرغت آخر ما في جعبتها، واعترفت اعترافًا صريحًا لا يدع مجالًا للشك، فراح الفتى يبتسم، بينما اعترى أمه والبارون فزع واضطراب، فاستدارت هي تنشد الابتعاد إذ أحنقها أن تكشف عن استيائها في سفور، واكتفى إدجار بأن قال:

– لعلك تذكرين أن أبي قد أوصى بألا أتنزه وحدي، وشدد في ذلك وأكد، حتى لقد عاهدته بأن ألتزم جانب الحيطة وأن أكون دائمًا في صحبتك.

وتعمد الفتى وهو يقول ذلك أن يلفظ كلمة "أبي" بنبرة ذات مغزى، إذ كان قد لاحظ أن لها وقعًا أليمًا عليها وعلى البارون. واستشف من ذلك أن ما خفي عنه له شأن بأبيه ويتصل به بسبب من الأسباب، وأنهما يخشيان هذا الشأن رغم بعد أبيه عن مسرحهما. يكشف عن ذلك ما يعتريهما من ضيق واضطراب لمجرد ذكره، ولاذ الاثنان بالصمت، فلم ينطق أحدهما بكلمة أو يعلق بشيء، وكأنهما فقدا القدرة على الكلام وانعقد لساناهما، وسار الاثنان جنبًا إلى جنب، ومن خلفهما سار الفتى. بيد أنه في مشيته هكذا لم يستشعر مهانة أو ذلة، بل على العكس من ذلك شعر بتأثيره عليهما،

ذلك التأثير الجبار الصارم، فقد كان بمثابة الرقيب اليقظ المتحفز لفريسته، كما شعر أنه أقوى من الاثنين، اللذين كتما سرهما الرهيب الذي يجهله، رغم أنه صغير وأنهما يكبرانه!

الفصل التاسع

مرت الأيام تباعًا، ولم يبق على رحيل البارون سوى القليل، فعزم على أن ينهل من المتعة المحرمة بأوفر قسط مستطاع، وكان هو والحسناء يدركان ألَّا سبيل لهما إلى التغلب على الفتى العنيد الحقود ومقاومته، فأوحى إليهما تفكيرهما السقيم بحيلة دنيئة مخجلة. هي أن يهربا منه لبضع ساعات يرشفان فيها من تلك الكأس المحرمة، وهما بمنجاة من رقابة الفتى وملاحقته. فطلبت الأم من ابنها أن يذهب إلى مكتب البريد ويسجل خطابين، وفي تلك اللحظة حانت من الفتى التفاتة، فلمح البارون عند الباب يتحدث إلى حوذي، وساور الشك إدجار وهو يتناول الخطابين من أمه، إذ كان يعلم أن خدم الفندق يؤدون أمثال هذا العمل. فسأل نفسه: "ترى هل عادا إلى خداعه؟"، ثم قال لأمه:

– وأين تنتظرينني ريثما أعود؟

– هنا في هذا المكان.

– هل حقًّا ذلك أم هو مجرد كلام؟

– حقا، سأنتظرك هنا!

– إذن فلن تخرجي، وستنتظرينني حتى أعود؟!

وكان الفتى يشعر بسلطانه وتأثيره، ولذلك خاطبها بلهجة التهديد والأمر. وقد كان قبل ذلك يتوسل إليها، ولكن الأمور تطورت وتبدلت. واتجه صوب الباب يحمل الخطابين، ولما اقترب من البارون، خاطبه وكان قد أحجم عن محادثته مدة يومين، فقال له:

– لن أتغيب طويلًا، سأسجل هذين الخطابين بسرعة، وستنتظرني أمي، فرجائي ألَّا تغادرا الفندق قبل أن أعود.

فأجابه البارون وهو يفسح له الطريق:

– أجل، لا تخف.. لا تخف.

وهرول الفتى عدوًا إلى مكتب البريد، وإذ بلغه، اضطر إلى الانتظار فترة طويلة، إذ كان بالمكتب رجل راح يثقل على الموظف ويشغله بعديد من الأسئلة، وحينما أنجز الفتى مهمته، قفل راجعًا يعدو بأقصى سرعته.

وكان وصوله إلى الفندق في اللحظة التي كانت أمه قد صعدت فيها إلى العربة وجلست، وإلى جانبها البارون، فتحركت بهما في التو. فغلى مرجل الغضب في نفسه، واشتد اضطرامه، فتمنى لو أمكنه أن يقذفهما بقذيفة.

لقد أفلحت حيلتهما وأفلتا منه، ولكن بخدعة ذميمة دنيئة. إنه

عرف منذ الأمس أن أمه لا تتورع عن اقتراف الكذب المشين، ولكن أن تعده وعدًا صريحًا، ثم تخلف ذلك الوعد وتنقضه بعد ساعة أو بعض ساعة بطريقة مخزية مزرية، فذلك إن دل على شيء فعلى منتهى الخسة والوضاعة. إنها بذلك قد قضت على البقية الباقية من ثقته بها، وخيِّل إلى الفتى أن الحياة لغز معقد لا يكاد يدرك كنهه، وأن المعايير والقيم قد هانت وضاعت بعد أن ظن أنها واجبة الاحترام، فإذا بها توافه تذروها الرياح!

واستغلق على الفتى تفسير ذلك السر الغامض، وتعليل جنوحهما إلى خداعه والفرار منه كما لو كانا لصين لاذا بالهرب حين فاجأهما رجل الشرطة. حقًّا أنه قرأ فيما قرأ أن بعض الناس من ذوي النفوس الوضيعة يلجأون إلى الحيل والخداع أو القتل، وهدفهم من ذلك المال أو السلطان، ولكن ترى ماذا دفع هذين الشخصين إلى اللجوء إلى خداعه ثم إلى الفرار منه؟ ما الذي يرميان إليه من وراء ذلك؟ ولماذا يميلان إلى الاحتجاب عنه؟ ثم ما هذا الذي يحرصان على إخفائه عنه بتلك الحيل وذلك الخداع؟

وراح يفكر ويمعن في التفكير، ويضني عقله ويرهقه دون هوادة، وساوره إحساس مبهم بأنه إذا نفذ إلى هذا السر انتقل إلى مرحلة النضج، وزايلته طفولته فأصبح رجلًا، ولكن ما سبيله إلى كشف هذا اللغز، وقد عصف به الغضب والحقد لإفلات أمه وشريكها، فجانبه

صفاء الذهن والتفكير.

ولم يجد سوى أن ينطلق عدوًا صوب الغابة، حتى إذا بلغ طريقًا مهجورًا لا يتعرض فيه للأنظار، ترجمت عبراته عن شجونه، فراحت تنساب على وجنتيه غزيرة ساخنة، وأخذ يردد في غيظ: "خبيثان، كاذبان، مخادعان"! وقد نفَّس بهذه الشتائم عن نفسه حتى لا يختنق، وقد راحت مشاعر الغضب والكراهية والضيق والهموم ونفاد الصبر التي زخرت بها أيامه والتي احتملها بجهد فوق طاقة الأطفال، فأكسبته إحساس بأنه نضج وأضحى كبيرًا. راحت هذه المشاعر تنفجر في نفسه فتنساب عبرات، بيد أنها كانت آخر عهده بالبكاء في طفولته، فقد كانت بمثابة الحد الفاصل بين مرحلتي الطفولة والنضج، لذلك كانت أقسى ما استهدف له، فراح يبكي مستسلمًا مستعذبًا في تلك اللحظة، راثيًا لما كان في نفسه من ثقة وحب واحترام!

وعندما عاد إلى الفندق، كان قد تحول إلى شخص آخر لا عهد له به، شخص اتسم بالهدوء والرزانة، ويمم شطر غرفته فاغتسل ليزيل آثار الدموع من عينيه، حتى لا يتشفيا فيه حين يريانه، وراح ينتظرهما رابط الجأش والجنان متحفزًا للانتقام!

واكتظ البهو بالنزلاء الذين جلسوا يقتلون الوقت في قراءة الصحف أو لعب الشطرنج، بينما انهمكت السيدات في الأحاديث والثرثرة، وجلس الفتى هادئًا ساكنًا، وقد كسا الشحوب وجهه وزاغت

نظراته، ودلف الاثنان من الباب، وبدا عليهما الضيق والاضطراب حين رأياه فجأة، وهمَّا بأن يقولا بعض أعذار كاذبة كانت قد اصطنعاها أثناء عودتهما، فهب الفتى واقفًا في ثبات، وقال في تحد حاد:

– سيدي، لديَّ ما أقوله لك!

وبدا الحرج على البارون فتململ في وقفته، وقد أحس بأن جرمه قد انكشف، وأنه به متلبس، واستعصت عليه الإجابة الرزينة، فقال في تلعثم:

– نعم.. لا بأس.. بعد قليل.. بعد لحظة!

ولكن الفتى، وقد نفد صبره، انفجر فيه بحدة، بصوت تعمد أن يكون عاليًا كي يسمعه جميع النزلاء الجالسين في البهو:

– بل استمع إليَّ الآن، إن مسلكك شائن معيب، لقد كذبت عليَّ وأنت تعلم أن أمي تنتظرني.

وارتاعت الأم وهلع قلبها حين رأت الأنظار تصوب إليها، فأسرعت نحو الفتى وقطعت عليه الاسترسال في حديثه قائلة:

– إدجار!

وفطن الفتى إلى أنها ترمي إلى طمس صوته بحدة صوتها، فاستشاط وازداد حدة عن ذي قبل، وعاد يصرخ في وجه البارون بأعلى صوته:

– إنني أقول لك للمرة الثانية، على مسمع من الحاضرين جميعًا، إنك كنت وضيعًا في تصرفك، وفي كذبك عليَّ، وخداعك لي، وهذا جرم جد شائن!

وقعت كلمات الفتى على البارون وقع الصاعقة، فشحب وجهه حتى أضحى في بياض الثلج، وتعلقت به أنظار النزلاء وأخذ بعضهم يتلامزون ويتغامزون، فنفد صبر الأم، وهوت على الفتى الذي راح يرتجف انفعالًا بقبضتها، وصرخت فيه بصوت محنق مغيظ:

– اصعد إلى غرفتك فورًا، وإلا انهلت عليك صفعًا أمام الجميع!

ولكن الفتى تمالك نفسه واسترد رباطة جأشه واستاء، بل ندم لتهوره، فقد كان يرمي إلى إثارة البارون دون أن ينفعل هو، ولكن فورة الغضب غلبته على أمره!

وسار الفتى نحو السلم بخطى وئيدة هادئة، بينما راحت الأم تقدم الأعذار للبارون في كلمات متلعثمة:

– لا تلق بالًا إلى وقاحته يا سيدي، واغفر له ما بدر منه فلا يخفى عليك أنه عصبي.

وأثارتها نظرات السخرية الموجهة إليها، لأنها لم تخش شيئًا سوى التعرض للفضيحة، وأدركت أن لابد لها من التشبث بالرزانة وكأن ما حدث ليس بذي بال. فلم تشأ أن تخرج فورًا، فاتجهت إلى حارس

الباب وسألته عن خطابات باسمها، ثم تظاهرت بأنها تتحدث إليه، وبعد ذلك صعدت إلى مخدعها وكأن شيئًا لم يحدث، ولكن النزلاء تابعوها وهي توليهم ظهرها بنظرات السخرية، وأخذوا يتهامسون ويتغامزون في ضحكات مكتومة.

الفصل العاشر

صعدت الأم السلم على مهل، فما كان يثيرها إلا التعرض لمثل هذه المواقف الشائنة، وكانت في قرارة نفسها لا تجسر على مناقشة الفتى، فهي لا تنكر جرمها وتهاب نظرات ابنها، تلك النظرات الغريبة الجديدة التي أطاحت بطمأنينتها وطوحت بأفكارها. وأهاب بها الفزع أن تتذرع بالملاطفة، إذ قدرت أن لا جدوى من اتباع العنف أو القسوة مع الفتى، لأن ثورته ستغدو مصدر قوة له تفوق قوتها!

وفتحت باب غرفته في وداعة بالغة، فأدهشها أن ترى الفتى يجلس هادئًا مستكينًا، وقد ملك زمام أعصابه فلم يبدُ في عينيه خوف ما، أو أنه اقترف ما لا يتفق مع الأدب، وإنما كان معتدًّا بنفسه كعملاق مارد!

وقالت له، وقد أضفت على صوتها حنان الأمومة:

- ماذا ذهب بلبّك يا داج؟ لقد رثيت لك، وخجلت من تصرفك. كيف تتحدث في تحد هكذا وتسلك مثل هذا المسلك المعيب مع رجل كبير كهذا؟ إنني أهيب بك أن تبادر فتعتذر له.

ولم ينظر الفتى إليها، بل تطلع إلى النافذة، وأجابها قائلاً:

– لا لن أفعل!

قال ذلك وهو مشيح عنها بنظره، يتطلع إلى النافذة كأنه يحدث الأشجار التي أمامه، وعجبت الأم لما بدا عليه من ثقة واعتداد بنفسه، فعادت تقول:

– ماذا طرأ عليك يا إدجار؟ تبدو كأنك تغيرت كثيرًا حتى ليخيَّل لي أنني لا أكاد أرى فيك إدجار ابني، عهدي بك عاقلًا لطيفًا يسهل التفاهم معك، فإذا بك تنقلب فجأة شيطانًا رجيمًا. لماذا تحقد هكذا على البارون وقد كنت تتغنى بحبك له، كما كان من ناحيته رقيقًا لطيفًا معك؟!

– نعم، لقد كان كذلك لأنه جعلني قنطرة يرمي من ورائها إلى التعرف بك!

ووقع هذا الجواب منها موقع السهم المسموم، فقالت:

– ما هذا الذي يجول بذهنك؟ هل أنت من البلاهة بحيث تتصور شيئًا كهذا؟ ماذا يشغل بالك؟

فصاح الفتى في حنق:

– إنه مخادع وكاذب، وكل أفاعيله تنطوي على الخبث. لقد رآك وأراد أن يتعرف بك، فأخذ يتقرب مني ويتودد إليّ ويتلطف معي إلى

درجة أن وعدني بأن يهديني كلبًا صغيرًا جميلًا، ولست أدري بماذا وعدك أنت، كما لا أدري لماذا يتودد إليك، ويصحبك كثيرًا. لا شك في أنه يبتغي منك شيئًا أو أمرًا، وإلا ما اتخذ زيفًا مظهر الرجل المهذب. إنه رجل شرير، يخدع ويكذب، راقبيه فتنكشف لك حقيقته. كم أبغض هذا الحقير النذل!

- ماذا دهاك يا إدجار؟ ويحك! كيف تخرج مثل هذه الألفاظ من فمك؟

وشعرت بالاضطراب، وتحيرت فلم تدر ماذا تقول بعد ذلك، واستشعرت في أعماقها بأن الفتى مصيب وعلى حق. ثم استطرد إدجار قائلًا:

- نعم إنه نذل وجبان ما في ذلك شك، وكان أحرى بك أن تفطني إلى هذه الحقيقة، وإذا كان الأمر غير ما أقول، فبماذا تعللين خشيته مني وتهربه، إن لم يكن ذلك لأنه يعلم تمامًا أنني أحدس نواياه السيئة، وأكشف خبثه وحقارته.

- بالله عليك.. كيف تتكلم بهذه اللهجة وكيف تسمح لهذه الألفاظ أن تجري على لسانك؟!

كان هذا أقصى ما وسعها أن ترد به، فقد شل عقلها فأضحى عاجزًا عن التفكير، وزايله الصفاء فارتج عليها، ولم تنطق شفتاها إلا

تلك الكلمات التي أرادت أن تموه بها اضطرابها وارتباكها، واختلط عليها الأمر، فلم تعرف أيهما تخشى، ابنها أم البارون، فاستولى عليها جزع أودى بالبقية الباقية من رشدها، ولاحظ إدجار ما طرأ عليها وأدرك مبلغ تأثيره فيها، فشد ذلك من عزيمته، وبعث فيه الأمل بأنها ستكون في صفه ضد البارون، فاقترب منها في دلال البنوة وأمسك بذراعها متوددًا، وبدا صوته عذبًا ناعمًا وهو يقول لها:

– ليس هناك شك في أنك لاحظت سوء نواياه يا أماه، فمنذ أن دخل في حياتك تبدلت حالك، ولست أنا الذي تغيرت، فقد بث روح الكراهية لي في قلبك، لسبب واحد هو أن يخلو له الجو معك. إنه يخدعك ويريد أن يغرر بك، ولا أدري بماذا وعدك، فهو كالحية الرقطاء لينة الملمس قاتلة اللذعة، وأنا أعرف تمامًا أنه لن يفي بوعد. ثقي بما أقول، إن من يخدع واحدًا يخدع غيره ما دام له هدف عنده، إنه شخص سيئ لا ضمير له وليس جديراً بالاطمئنان إليه أو الثقة به!

وعجبت الأم كيف يتحدث الفتى هكذا في حكمة الشيوخ، وخيِّل إليها أن هذا الصوت الناعم الذي تخنقه عبرات الأسى صدى لما يعتمل بين جوانحها، فقد راودها بالأمس إحساس بنفس هذه الكلمات، راح يهيب بها في إلحاح، ولكن الحياء منعها من أن تعترف برجاحة رأي الفتى، فلجأت إلى الجفاء والغلظة، شأن من يضيق صدره

بشعور مقبض يريد التخلص منه، فقالت للفتى:

- إن من لا يزال في طور الطفولة لا يدرك مثل هذه الأمور، فليس لك وأنت ما زلت صغيرًا أن تقحم نفسك فيها. وتمسَّك بآداب السلوك!

فعاد التجهم إلى وجه الفتى، وبدا جامدًا كالطود، وقال في جفاء:

- أنت وشأنك يا أماه، لقد حذرتك وكفى!

- إذن فأنت تصر على عدم الاعتذار له؟

- نعم، لا أريد الاعتذار.

وكانا وجهًا لوجه وهما يتحدثان، فأحست بأن مكانتها عنده قد تضاءلت بعد ما رأته من عناده وتشبثه برأيه، فقالت:

- إذن ستتناول وجباتك وحيدًا في غرفتك، فلن تجلس إلى المائدة حتى تعتذر. إنني أعرف كيف ألقنك السلوك السوي، الزم عرفتك ولا تبرحها حتى أسمح لك. أتفهم؟

ولم يجب الفتى واكتفى بالابتسام، تلك الابتسامة الماكرة. بيد أنه في قرارة نفسه لم يكن راضيًا ع مسلكه، لقد أخطأ حين أفلت زمام نفسه تجاه البارون، فآثر الهدوء حتى لا يتكرر الأمر مع أمه الكذوب.

وغادرته دون أن تنظر إليه، فقد كانت تلدغها نظراته الثاقبة،

لقد ضاق صدرها به منذ أحست بذلك الوعي الذي هبط عليه، وأخذ يلاحقها ويحصي عليها حركاتها وسكناتها، وهالها أن ترى ضميرها يتقمص هذا الفتى، ابنها، فيحذرها ويسخر منها. لقد كان في نظرها مجرد ابن، إحدى متع الحياة، تفرح بوجوده أو تتلهى معه أو تخصه بحبها، وقد يكون مبعث ضيق لها أحيانًا، ولكنه أولًا وأخيرًا جزء منها، يكمل ناموس الحياة، ولكن هذا الابن قد طفر فجأة وأخذ يقاوم ميولها ويعترض طريقها ويملي عليها إرادته فتولد في نفسها إحساس بالكراهية له!

وغشيها بعض التعب وهي تهبط السلم، وتناهى إلى سمعها صوته الطفلي وكأنه منبعث من صدرها، يتردد في أذنيها ويهيب بها:

– أحرى بك أن تحذريه.

ولم تستطع أن تقبل هذا النذير الذي راح يلح عليها من أعماقها. وصادفتها مرآة، انعكس منظرها على صفحتها، فأخذت تتأمله في تفكير عميق، وتأمل أن تتغلغل إلى أغوار نفسها. وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة، وكأنهما توشكان أن تطلقا كلمة سخرية، وكان الصوت لا يزال يهيب بها في إلحاح متواصل، ولكنها هزت كتفيها وكأنها تطرد هذه الهواجس، وحزمت أمرها ونزلت بخطى ثابتة، وكأنها مقدمة على المحاولة الحاسمة الأخيرة!

وظل الفتى حبيسًا في غرفته، وحمل له الخادم الطعام إليها، وإذ سمع

صرير الباب، ثار محنقًا. لا شك أن أمه هي التي أرادت له ذلك، وكأنه حيوان يخشى أذاه! وطافت برأسه مشاعر التفكير والاستنتاج والتساؤل:

– ترى ماذا يجري الآن بعيدًا عن عيني؟ أية مؤامرة يديرانها؟ هل يقدر لذلك السر أن ينكشف في غيابي؟ السر الذي أحس به عندما أكون بين الكبار، والذي يوصد عليه الناس الأبواب في الليل ويخفونه وراء قناع من الأحاديث التافهة حين أقبل على مجالسهم؟ ذلك السر الذي ظل يراودني منذ أيام حتى لأكاد ألمسه لشدة قربه، ولكني عاجز عن إدراك كنهه؟ ترى هل قصرت في جهد أبذله في سبيل كشفه؟ لكم قرأت كثيراً من هذه الأشياء المشوقة دون أن أفهمها. لا بد أن هناك مفتاحًا يجب أن أملكه لأنفذ إلى هذا السر، وربما كان المفتاح في نفسي، وربما كان في نفوس غيري. لكم رجوت الخادمة أن تفسر لي ما استغلق عليَّ فهمه فكانت تسخر مني، ما أبشع أن يكون المرء عاجزًا عن الإدراك متعطشًا إلى المعرفة لأنه صغير، لا سبيل له إلى سؤال الغير. حقًّا ما أبشع أن أكون هكذا ألعوبة وأضحوكة لمن هم أكبر مني، ومخلوقًا بهذه التفاهة لا شأن لي ولا يرجى مني نفع! لا بد لي من أن أهتدي إلى هذا السر، إن قلبي يحدثني بأنني لا بد سأكشف عنه، فقد أمسكت بطرف الخيط ولن يهدأ بالي حتى يتكشف المستور!

وتناهى إلى سمع الفتى أن ثمة خطوات تقترب، فأصاخ السمع،

ولكنها كانت ريح هبت فداعبت أوراق الشجر، فما لبث أن عاد إلى الاستغراق في تأملاته:

– لابد أنهما يسيران في طريق معيب شائن، وإلا ما لجآ إلى الخداع والأكاذيب الدنيئة ليقصياني هكذا بعيدًا عنهما.

لا ريب في أنهما يسخران مني الآن، وأنهما مغتبطان إذ تخلصا مني، ولكنني قرأت أن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً، لأنه يكسب الشوط في النهاية. ما أشد غبائي حين رضخت لأمر أمي وقبلت حبسي، فأتحت لهما الفرصة كي يسيرا في غيهما دون رقيب يحصي عليهما حركاتهما وسكناتهما، إنني أدرك أن الكبار يظلون على ظنهم بأن الأطفال صغار الأحلام على طول المدى، ويظنون أن همنا أن ننعم بالنوم في ليلنا، ناسين أننا على قدر كبير من المكر، وأن بوسعنا أن نتظاهر بالنوم ونحن مستيقظون منتبهون لما يدور حولنا، بل ناسين أن باستطاعتنا أن نلبس مسوح البلاهة، ونحن أشد ما نكون يقظة وذكاء! فقد سبق أن حدث أمر كان أهلي يرتقبونه منذ زمن، ولكنهم أظهروا الدهشة أمامي تمويهًا لي، إذ كنت قد سمعت أبي وأمي يتحدثان به منذ أيام وهما يحسبانني نائماً، إنني سأفاجئ هذين التعسين في مغامرتهما الوضيعة هذه المرة. كم أتمنى أن أسترق السمع وأن أرقبهما خلسة خلال الباب، بينما يظنان أنهما بمنجاة مني لأني حبيس! ماذا لو دققت الجرس فتأتي الخادمة وتفتح الباب؟ وماذا لو أثرت ضجة وجلبة

أو حطمت زهرية أو إناء فيفتحون الباب ليتبينوا ما حدث، فأنتهز الفرصة وأندفع إلى الخارج وأسعى لمراقبتهما؟ ولكن ذلك يحط من شأني، فلا ينبغي أن يعلم بمهانتي منهما أحد، لأقنع بها الآن، فلسوف تدور عجلة الزمن فأكيل لهما الصاع صاعين.

الفصل الحادي عشر

اعترت الفتى رجفة، فقد تناهت إلى سمعه ضحكة عابثة ناعمة، لا شك في أنها ضحكة امرأة، تنبعث من الطابق الأرضي، فأخذ يتساءل:

– ترى هل هي ضحكة أمي؟ فلتضحك الآن ملء شدقيها هازئة مني وأنا حبيس لائذ بأحد الأركان كأنني كلب مشدود، ما دام وجودي ليس مرغوبًا فيه.

واشرأب عنقه، وأطل من النافذة في حذر، فتبين أن الضحكة لم تكن لأمه، وأن التي أطلقتها فتاة ضمن حفنة من الفتيات الماجنات رحن يتعابثن مع أحد الشبان، وفطن إلى أن النافذة قريبة من مستوى الأرض، فخطر له أن يقفز منها ويسعى إلى مراقبتهما وهما يظنان أنهما بمأمن من عيونه، فاستشعر الغبطة لهذه الفكرة، وخيِّل إليه أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من السر الخطير، وألح عليه هاتف في أعماقه:

– أسرع، ولا تفلت الفرصة.

وكان الطريق غير مطروق، فلم يخش أن يكشف أمره أحد. وكالعصفور الصغير قفز من النافذة، وأحدث هبوطه على الأرض صوتًا لا يكاد يسمع، وكان قد استمرأ المراقبة خلال اليومين الماضيين، ولكنه الآن أحس بشعور مبهم من التوجس والانقباض وهو يختلس

الخطوات حول الفندق في حذر، وتجنب الأضواء حتى لا ينكشف أمره. وابتدأ بقاعة الطعام، واسترق إليها النظر فلم يجدهما، وهكذا أرسل بصره خلال النافذة تلو النافذة دون أن يجسر على التسلل إلى الداخل خشية أن يكونا في إحدى الردهات فيريانه، وساوره اليأس حين لم يعثر لهما على أثر، وفجأة لمح شبحين عند الباب، فتراجع مضطربًا وتوارى في الظلام. كانت أمه تتأبط ذراع البارون الذي أصبح أنيسها وجليسها، إذن فقد حالفه التوفيق وظهر على المسرح في الوقت الملائم. ترى بماذا يتحدثان في خفوت لم يستطع معه أن يتبين الكلمات؟ زاد من ذلك أن الريح كانت تعصف، وتناهت إليه ضحكات أمه، ضحكات منفعلة لا عهد له بها، وما دامت تضحك، فليس ثمة شر، وبالتالي ليس هناك ما يوحي بأنهما يخفيان عنه أمرًا جللًا، فشعر بخيبة أمل.

وتساءل الفتى ترى ماذا يضطرهما إلى مغادرة الفندق وحدهما في جوف الليل؟ وإلى أين يقصدان؟ لقد كانت في الجو نذر رياح عاصفة، وفجأة اشتدت حلة السماء بعد صفاء وإشراق، حتى أصبح من العسير تبين موضع القدم، ولكن كوكبًا لم يرقه ذلك، فتخلص من غلالته وغمر المكان بضوء فضي. وهكذا تعاقبت الظلمة والضوء، وكأن قبة السماء حسناء تتقنع ثم تسفر، وأخيرًا استقر الصفاء على صفحة السماء، فلمح الفتى شبحي البارون وأمه يسيران. وكانا ملتصقين وكأن شعورًا بالهلع يلفهما، حتى لقد ظنهما شخصًا واحد،

ترى ما وجهة هذين الآثمين؟ وكانت الغابة تبعث الرهبة في النفس في ذلك الليل البهيم، وأشجار الصفصاف ترسل أصواتًا تضاعف من شعور الخوف، وكأن وحشًا ضاريًا أخذ يروح ويجيء سعيًا وراء فريسة. وقال إدجار يحدث نفسه:

– سأتبعهما ولن يرياني في ذلك الظلام أو يحسا بي أو بخطواتي، لأن الريح تعصف فتتلاشى بجانبها جميع الأصوات.

وتابعهما بنظرة وهما يهبطان الطريق المنحدر، متواريًا وراء الأشجار والظلال، في إصرار ومثابرة وعناد، مغتبطًا بالريح التي حالت دون تنبههما له، وناقمًا عليها لأنها حالت دون سماع حديثهما. وقفزت إلى ذهنه فكرة وهي أنه لو أمكنه أن يجتلي أسارير وجهيهما فسيقرأ فيها السر!

ورآهما يتوغلان في السير، لا يلويان على شيء، وقد انتشيا بالسعادة لخلوتهما الآثمة في هذا الليل الساكن والزاخر بشتى الأفاعيل، واستسلما لنشوتهما الجياشة، دون أن يدور بخلدهما أن على كثب منهما في تلك الظلمة، عينًا ساهرة تقتفي أثرهما وتتبع خطواتهما، عينًا زاخرة بالفضول مفعمة بالحقد والكراهية، لا تطرف عنهما لحظة!

وفجأة توقفا عن المسير، فتوقف الفتى تبعًا لذلك، وتوارى خلف شجرة، وشعر بمزيج من الحنق والخوف. كيف يكون الأمر لو أنهما قفلا راجعين، ولم يكن باستطاعته أن يصل إلى غرفته قبل وصولهما ؟

لسوف تفشل خطته وتنهار، لأنهما سيفطنان إلى أنه يراقبهما في غفلة منهما، وسيذهب أمله هباء في انتزاع سرهما الذي يهفو إلى معرفته جاهدًا، ولاح عليهما التردد، بينما لم يكن هو هدف لضوء القمر، فلم يتبيناه، وإن كان يراهما في وضوح!

ورأيا ممرًّا ضيقًا يؤدي إلى الوادي المنبسط، شاعت فيه الظلمة، إلا من ضوء ضعيف يتسلل إليه، فأشار إليه البارون، ودهش الفتى لماذا يريدان أن يعبراه؟ وبدت هي وكأنها ترفض فراح البارون يحثها ملحًّا، واشتد الحمق والخوف بالفتى. ماذا يبغي هذا اللعين من أمه إذ يستدرجها إلى ذلك المكان المظلم؟ ومما كان قد قرأه، دار بخلده أن البارون مقدم على اقتراف جريمة قتل. قتل أمه، وأنه لذلك عمد إلى إقصائه، فهل يستغيث مستنجدًا؟

وهمَّ بأن يصيح، ولكن حلقه جف فلم يستطع، وتوترت أعصابه لشدة الانفعال، وأحس بدوار وكاد يهوي إلى الأرض، فتلمس ما يستند إليه، وانكسر الغصن الذي أمسك به فأحدث صوتًا أجفل منه الفتى كما بعث الرعب في الشريكين، فحملقا في الظلام يستطلعان ما جرى، فتوارى هو خلف الشجرة وظل ساكنًا لا يتحرك، ولفه الظلام فلم يش به، وعاد السكون إلى المكان، بيد أنهما ظلا متوجسين!

وإذ كان القلق لا يزال مستحوذًا عليهما، فإن البارون لم يمانع حين أشارت عليه بالعودة، فقفلا راجعين في خطى حذرة بطيئة وقد

تلاصقا، واستشعر الفتى متعة لاضطرابهما وألمهما، وإمعانا في التخفي، زحف على يديه وقدميه متسللًا حتى اجتاز الغابة، ثم راح يعدو بأقصى سرعته حتى بلغ الفندق، فصعد وفي لحظة كان مستلقيًا على الفراش، وظل ساكنًا فترة من الوقت يتصنت، وقد اشتدت ضربات قلبه لشدة الجري. وبعد أن استعاد قواه وهدأت أنفاسه، نهض إلى النافذة واستند إليها بمرفقيه، وأخذ يرقب عودة اللعينين!

وطال انتظاره، إذ لابد وأن القلق والتعب قد نالا منهما، فسارا في وهن وبطء، بيد أنه ظل ينتظرهما في حذر وجلد، حتى لاحا له يتقدمان وئيدًا، وقد انعكست أشعة القمر على ملابسهما فبديا كطيفين، وعاد الفتى يتحدث إلى نفسه متسائلًا:

- ألم يكن القتل نية الرجل، أم حال تسلله والصوت الذي أحدثه الغصن الذي كسر دون إتمام الجريمة الرهيبة؟!

وعندما اقتربا، رأى وجهيهما، واتضحت له معالمها. فلاحا له في بياض الثلج، وقد نمت أسارير أمه عن شعور بالغبطة، أما البارون فكان على النقيض، بدا عابسًا مستاء، ربما لإخفاقه فيما كان ينتويه.

وإذ صارا على قيد خطوات من الفندق افترقا، ولم يفكر أحدهما في التطلع إلى أعلى، حيث النافذة التي يطل منها. فعلل الفتى ذلك بأنهما نسياه، واستبد به حنق اختلط بإحساس خفي بالانتصار، وقال لنفسه:

– إنكما تحسبان أنني أغط في النوم، إنكما جد واهمان، فإنني يقظ.. مترقب.. متحفز.. لم أنسكما، سأثابر على مراقبتكما حتى أكشف عن السر الرهيب الذي أقض مضجعي، فجافاني النوم، سأفرق بينكما، فلست نائمًا أو غافلًا أو أبله.

ودلف الاثنان من باب الفندق، الواحد تلو الآخر، دون أن يدور بخلدهما أنه لهما بالمرصاد.

الفصل الثاني عشر

ارتد الفتى عن النافذة لاهثًا يرتعد خوفًا، فقد أحس بأنه اقترب من السر، وكان يحسب أن ما قرأه من الكتب من أقاصيص المغامرات، من وحي الخيال، بعيدًا عن الواقع، فإذا به يرى نفسه يعيش في هذه المغامرات والانفعالات، فارتعد لذلك كيانه، ترى من يكون هذا المتطفل الذي أقحم نفسه في حياته وحياة أمه؟ أهو سفاح ويستدرج أمه إلى الخلوات والظلام ليفتك بها؟ أغلب الظن أن حدثًا جللًا كان يوشك أن يقع، أحرى به أن يكتب لأبيه أو يبرق إليه في الصباح، ولكن ربما وقع المحظور في ليلته هذه، فإن أمه لا تزال مع ذلك الرجل البغيض، لم تصعد بعد إلى مخدعها.

واختفى الفتى خلف ستارة في مكان مظلم بالردهة، يرقب عودتها المتأخرة، فقد آلى على نفسه ألا يغفل عنهما، وانتصف الليل، وأقفرت الردهة وخفت ضوؤها، ومضى الوقت متثاقلًا. وأخيرًا تناهى على سمعه وقع خطوات تصعد، فأرهف السمع. لم تكن مشية شخص يسرع إلى غرفته، بل كانت خطوات بطيئة مترددة، كأن سلحفاة تزحف. وأصاخ السمع، فتناهت إليه همسات بين الحين والحين، يتبعها توقف عن السير، فطغت على الفتى موجة انفعال حادة:

ترى هل هما قادمان، وهو لا يزال في رفقتهما؟ وغدت الخطوات أكثر وضوحًا، وتبين صوت البارون يهمس، فتجيبه أمه قائلة:

– أرجوك لا، ليس الليلة.

وازداد ارتجاف الفتى، وتضاعفت ضربات قلبه، لأنه باقترابهما يسمع ما يقولان، وشعر بالتقزز من صوت الرجل وهو يتوسل إليها ويتذلل في إلحاح.

– اطرحي هذا العناد، وخففي من حدة تلك القسوة، لقد كنت بالغة الروعة والجمال هذا المساء.

– أرجوك.. أعفِني.. لا يحق لي ذلك ولا أستطيعه، اتركني.. ابتعد عني!

واعترى الفتى رعب جائح، إن أمه تتنهد في حرارة، ماذا يخيفها؟ ماذا يريد منها الوغد؟ إنهما يدنوان من الباب، وهو في مخبئه يرتعد خوفًا، ثم سمعه يقول:

– هيا يا ماتيلدا.. تعالي!

وكان تنهدها هذه المرة واهنًا، فقد ابتدأت مقاومتها تضعف وتتضاءل.

وواصل الاثنان السير، ومرت أمه بمخدعها ولكنها لم تدخل، فإلى أين هي ذاهبة؟ ولماذا لا يسمع صوتها؟ هل ناولها مخدرًا؟ وكاد الفتى

يجن، وبيد مرتعشة وارب الباب فرآهما، وقد احتوى النذل أمه بين ذراعيه وراح يجذبها في رفق، وبدت مستسلمة لا تبدي مقاومة، حتى بلغا غرفة الرجل، وظن الفتى أنه سيدفعها قسرًا ليرتكب جرمه، فجن جنونه، وفتح الباب في عنف ووحشية، واندفع نحوهما، فارتدت الأم مذعورة وصرخت صرخة مكتومة إذ رأت من يندفع نحوها بغتة في الظلام، وبدا كأنه أغمي عليها، وعاونها الجبان حتى لا تسقط على الأرض، وأحس في تلك اللحظة بلطمة تسحق وجهه وشفتيه، رغم اليد الواهنة الصغيرة التي هوت بها، كما أحس بمن يتشبث بجسمه وكأنه قط متوحش أنشب مخالبه في فريسته. فترك المرأة التي فرت مبتعدة وقد تملكها الفزع دون أن تتبين ذلك المهاجم، بينما راح البارون يدافع عن نفسه وينهال لطمًا على غريمه، ولم يتهيبه الفتى رغم الفارق بين عمريهما وقوتيهما، فقد أراد أن يثأر لحبه الموءود. فراح في هياج يكيل اللطمات منفثًا عن البغض الذي يكنه للرجل، وتبين البارون خصمه الذي يمقته لتجسسه وتعكير صفو أيامه، والذي حال بينه وبين بلوغ مشتهاه، وراح الفتى في فورته يكيل الضربات للرجل دون أن ينسحب أو يستغيث، وخجل البارون من نفسه أن ينازل طفلًا، فهم بإبعاده عنه، ولكن الفتى عض بوحشية يد غريمه التي أمسكت برقبته، فصرخ البارون من الألم، وجذب يده، فهرول الفتى إلى غرفته ودخل ثم أوصد الباب!

كانت المعركة خاطفة في ذلك الليل، فلم يسمع بها أحد، وكأن

شيئاً لم يحدث، ومسح البارون بمنديله يده إلى أدمتها عضة الفتى، وراح يجيل بصره، فأدرك أن أحدًا لم ير ما حدث، ولكن خيِّل له أن الكون يسخر منه!

واستيقظ الفتى في صبيحة اليوم التالي، فوجد شعره مشعثًا، وأحس بأنه نهب لألم ممض، فراح يتساءل في حيرة:

– أحلَّ بي كابوس مزعج في نومي؟

وأحس بدوار يرهق رأسه، وباضطراب، وأدهشه أن يجد نفسه ما زال بملابسه، واتجه نحو المرآة، فطالعه وجهه شاحباً، وجبينه قد تورم وامتلأ بالكدمات والخطوط الحمراء. وشيئًا فشيئًا استعاد هدوءه، وتذكر والأسى يعتصر نفسه ما حدث، تذكر المعركة والعودة الخاطفة، وأنه ارتمى على فراشه دون أن يخلع ملابسه متأهبًا للهرب، فاستسلم لنوم مضطرب تخلله الفزع، حتى راح دمه الفائر يتجمع على أنفه!

وعادت الحركة والحياة إلى الطابق الأرضي، شأنه كل صباح، وغمرت أشعة الشمس غرفة الفتى، فأدرك أن النهار قد تقدم، ونظر إلى ساعته التي خانته وتوقفت عن الدوران لأنه نسي في انفعاله أن يملأها، فاغتسل وصفف شعره وأصلح من هندامه بسرعة، ثم هبط إلى الطابق الأرضي وقد اعترته صدمة نفسية وإحساس بأنه اقترف إثمًا!

ورأى أمه في قاعة الطعام، وقد جلست بمفردها إلى مائدتها،

وتنفس الفتى الصعداء حين لم يلمح غريمه، وتمنى ألا يرى ذلك الوجه المقيت الذي كال له بالأمس اللطمات، واقترب من المائدة في حذر، وحيًّا أمه في أدب جم تحية الصباح، ولكنها لم ترد على تحيته، بل ولم تكلف نفسها عناء النظر إليه، فقد جالت ببصرها في الفضاء المترامي الممتد أمامها، وبدا وجهها بالغ الشحوب وعيناها في نصف إغماضة، وطرف أنفها يختلج تلك الاختلاجة التي يعرفها والتي تنم عن اضطرابها، فجز الفتى على شفتيه. إن صمتها يزعجه وهو لا يعلم مدى إصابة البارون، ولا يعرف إن كانت أمه تعلم بالمعركة، فآلمه ذلك، وبدا له وجه أمه الساكن مبعث قلق له، حتى لم يجرؤ على مجرد التطلع إليها، خشية أن تباغته وتحدق فيه!

ولاذ الفتى بالصمت فلم يتكلم، ولم يجرؤ على أية حركة، حتى لقد حرص أن يرفع قدحه ويعيده في حذر شديد كي لا يحدث صوتًا، وراح يختلس النظر بين الحين والحين إلى أنامل أمه التي كانت تعبث بالملعقة في حركات عصبية تنم عن غضب كامن! وظل على تلك الحال مدة ربع ساعة، في انتظار ما تتمخض عنه الأمور، ولم تلفظ أمه لفظاً يزيح عنه بعض اضطرابه، وعندما نهضت، متجاهلة وجوده، اختلط عليه الأمر.

فلم يدر ماذا يفعل، أيبقى جالسًا أم ينهض هو الآخر ويصحبها؟ وآثر النهوض فنهض وتبعها في ذلة، وتظاهرت بأنها لا تراه، وأحس

الفتى بالخجل بسيره هكذا في أعقابها، فأخذ يتمهل في السير حتى تبعد عنه. إلى أن بلغت مخدعها، فدخلت وأغلقت الباب في وجهه!

ترى ماذا حدث؟ لقد تحولا وكأنهما شخصان غريبان، ففارقته طمأنينة النفس، هل جانب الصواب بمهاجمته البارون؟ أم هل يعدان له عقابًا جديدًا؟ إنه يشعر أن حدثًا رهيبًا يوشك أن يقع، وتلوح في الجو بوادر عاصفة توشك أن تحدث بينه وبين أمه ويحس أنها واقعة لا محالة. لقد ظل ساعات طوال يذرع ردهات الفندق وقاعاته وهو ينوء تحت وطأة هذا الإحساس، حتى ضاق به وجدانه الغض، وحان موعد الغداء فجلس إلى المائدة كسيرًا ذليلًا!

وحيَّا إدجار أمه في هذه المرة أيضًا، لأنه يريد أن يضع حدًّا لهذا الصمت الرهيب الذي يثقل عليه، ولكنها لم ترد على تحيته، بل ولم تتطلع إليه، فأحس الفتى بأنه أمام أزمة حادة، وموقف لا عهد له به مع أمه، إن خلافاتهما السابقة كانت مجرد خلافات بسيطة سطحية، تزول بابتسامة أو اعتذار ولا تترك أثرًا، أما في هذه المرة فإن الأمر يبدو مختلفاً، ويظهر أنه أثار في أمه شعورًا عميقًا، وهو الآن يتوجس من ذلك. وتناول طعامه وكأنه سم زعاف، إنه كاد يختنق، دون أن تأبه له، وكأنها لا تلحظ شيئًا، والمرة الوحيدة التي أبدت فيها ما ينم عن شعورها بوجوده كانت حين نهضا، إذ استدارت وكان ذلك مصادفة وقالت له:

– هيا بنا نصعد يا إدجار، فإن لدي ما أقوله لك.

لم تقل ذلك بلهجة الأمر أو التهديد، بل نطقت به في منتهى الهدوء، حتى لقد توجس، لقد حطمت كبرياءه وأذلت نفسه فتبعها كالكلب الذليل.

واحتوتهما الحجرة، وظلت صامتة فترة ثقلت وطأها على نفسه لفرط ما يعانيه وما يعتمل في داخله، وكان الصمت مطبقًا حتى لقد سمع دقات ساعته، وأخذت نبضات قلبه تدق تباعًا، كما كانت هي تعاني انفعالاً جائحًا، فكانت تتحاشى النظر إليه وهي تخاطبه وتشيح عنه بوجهها، ثم ابتدرته قائلة:

– لن أتحدث عن تصرفك بالأمس، إنها فضيحة مخزية يخجلني مجرد التفكير فيها، أنت المسئول عنها وستتحمل تبعتها، وكل ما أريد أن أفضي إليك به، أن ليس لك بعد الآن أن تجلس بين من يكبرونك، لقد بعثت إلى أبيك بذلك، لكي يتخير لك رائدًا أو يلحقك بالقسم الداخلي بإحدى المدارس، حتى تتعلم آداب المعاشرة، فلست أريد أن أقاسي من جرائك وأتعذب.

استمع إليها الفتى وقد وقف مطأطأ الرأس، وأحس بأن ما ذكرته ما هو إلا تمهيد لما سيليه، للموضوع الذي ينتظره في قلق.

واستطردت الأم قائلة:

– وأول ما يجب أن تفعله أن تذهب فورًا وتعتذر للبارون.

وإذ سمع الفتى ذلك، ارتعدت فرائصه، وهمَّ بأن يتكلم ولكنها لم تسمح له، وأردفت:

– علمى أنه قد رحل اليوم، لذلك ستكتب له خطابًا أمليه عليك.

وعاوده الارتجاف، ولكن أمه لم تكترث لما اعتراه، بل قالت في حزم:

– ليس لك أن تعترض، هاك الورق والقلم.. اجلس لتكتب ما أمليه عليك!

الفصل الثالث عشر

نظر إليها الفتى وقد تحجرت عيناه خضوعًا وامتثالًا، فإنه لم يعهد أمه قبل الآن حاسمة هكذا. فجلس وتناول القلم، ومال برأسه على المائدة، وأخذت أمه تملي عليه بعد أن أرشدته إلى كتابة التاريخ:

"سيدي.. بلغني مع الأسف الشديد أنك غادرت سيمرنج، ويحمل خطابي هذا ما كنت مزمعًا أن أفعله شخصيًّا.. أي أنني أرجو أن تقبل أسفي على مسلكي بالأمس واعتذاري عنه، ولعلك تذكر أن أمي أخبرتك أنني في دور النقاهة من مرض خطير خلف فيَّ توترًا في أعصابي، فأثور في بعض الأحيان وأقدم على أفعال أستشعر الندم عليها بعد ذلك".

وما إن انتهى الفتى من الكتابة، حتى اعتدل منتصبًا ثم استدار، وقد عزت عليه نفسه فاستكثر ذلك على كبريائه، وصاح في وجه أمه:

– لن أسطر هذا، لأنه يتعارض مع الحقيقة!

– إدجار.. ماذا تقول؟

– ليس ذلك صحيحًا، إنني لم أقترف شيئًا أندم عليه، أو أعتذر عنه، قد بادرت إلى نجدتك عندما استنجدت!

وغاض الدم من شفتي الأم، فشحبتا، واهتز طرف أنفها وهي تصيح:

– تقول إنني استغثت مستنجدة؟ إنك تهذي! أصابك خبل!

فاستشاط الفتى غضبًا، ونهض فجأة وهو ينتفض، وقال لها:

– نعم، حدث ذلك في الردهة مساء أمس، فقد سمعت استغاثتك عندما أمسك بك، فصحت فيه بصوت مسموع: "اتركني.. اتركني.."، وقد سمعت صياحك وأنا في غرفتي!

– أنت كاذب.. فما كنت معه في الردهة، لأنني افترقت عنه عند أول السلم!

وغاظه هذا الكذب الجريء، وكاد ينفجر، ثم حدق في أمه وجابهها.

– أحقًّا لم تكوني في الردهة معه؟ واحتواك بين ذراعيه؟ وضربك بقبضته؟!

فانفرجت شفتاها بضحكة جافة فاترة، وقالت:

– لقد كنت تحلم!

وكان يعلم أن الكذب والخداع ميسوران، أما إنكار الحقيقة والواقع في غير حياء أو خجل فمما لا تحتمله النفس، لذلك ثار الفتى

فسألها، وهو يشير إلى الكدمات التي أصابته:

– وهذه الكدمات الدامية، أهي من آثار الحلم أيضًا؟

– كيف لي أن أعرف كيف أو ممن أصابتك؟ لا داعي للجدل، عليك أن تطيع وتكتب!

وبدت شديدة الشحوب، تكاد لا تستطيع الاحتفاظ برباطة جأشها.وبغتة انبثق من أغوار الفتى قبس انبعث من وجدانه ويقينه، وعجب كيف تطمس الحقيقة وتمتهن كأنها عود ثقاب ينطفئ. فشعر بالتقزز، وراح يتكلم آسيًا دامي الفؤاد:

– أكان حلمًا ما حدث بالردهة؟ وهذه الكدمات الدامية؟ ونزهتكما بالأمس في الخلاء يشهد عليكما القمر ورغبته في السير بك عبر الممر المنحدر؟ هل تراءى لي كل ذلك في الحلم؟! أظننت أنني أقبل الحبس في غرفتي؟ كلا ثم كلا! لست أبله بالدرجة التي تظنينها. إنني أعرف كيف أتصرف؟

وأشاح عنها بوجهه في أنفة، وإذ رأت منه هذه المكابرة، زايلها هدوؤها، واحتقن وجهها وفاض بالكراهية، وانطلقت في غضب تقول:

– والآن اكتب فورًا، وإلا..!

فتحداها مستثيرًا إياها:

– وإلا ماذا؟

– وإلا انهلت عليك ضربًا!

ولم يتهيب الفتى، بل اقترب منها وأطلق ضحكة زخرت بالسخرية، فصفعته على وجهه، فصاح وشعر بألم في أذنيه وطنين، وأخذ يطوح قبضتيه على غير هدى، وبدت له الدنيا حمراء، وأحس بأنه أصاب بقبضتيه وجهًا، وسمع صرخة ردته إلى رشده. لقد ضرب أمه وهو ما لا يصدقه، فاستبد به ألم ممض وخزي شامل ووجل شديد، ورغب في أن يهرب، وتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته، وقفز نحو الباب وهبط السلم مسرعًا وغادر الفندق، وانطلق يعدو في الطريق لا يلوي على شيء.

ونال منه الإعياء فوقف واستند إلى شجرة، وساقاه ترتجفان وأنفاسه لاهثة، فقد هاله ما فعل، وشعر بوخز كاد يخنقه. ترى ماذا يفعل؟ وأين يلتمس المأوى؟ وعذبته الوحدة رغم أنه كان قريبًا من الفندق، وخيِّل إليه أن أحدًا لا يكترث له وأن لا سند له في هذه الدنيا. حتى الأشجار التي كانت حانية عليه بالأمس، قست بغتة وبدت وكأنها تتحفز للانقضاض عليه، ولم يدر بخلده ما ينتظره من أمور أشد قسوة وإيلاما! وأحس بلوعة إذ وجد نفسه وحيدًا في خضم الحياة. بمن يلوذ؟ إنه يخشى أباه السريع الغضب، فقد يطرده، كما لا يستطيع العودة إلى أمه وقد صفعها، على وجهها، فشعر بالرغبة في خوض المجهول، وتذكر جدته العجوز الطيبة القلب التي كانت تغمره

بحنانها وتقف إلى جانبه إذا تعرض لعقاب أو تأنيب. إذن فليذهب إليها في بادن ريثما يعتذر لأبويه بخطاب.

وأشعرته الوحدة بالذلة، لصغر سنه وافتقاره إلى المعرفة والتجربة، فسخط على اعتزازه بنفسه، وتمنى أن يظل طفلًا طيعًا مجردًا من العناد، وتساءل كيف السبيل إلى بادن والشقة بينه وبينها بعيدة، وفرح حين تذكر أنه يحتفظ بقطعة نقود ذهبية من ذات العشرين فرنكًا لم ينفقها، كانت قد أهديت له في عيد ميلاده، ولكن هل تكفي؟ إنه يجهل تكاليف الأسفار، وتبين عدم إلمامه بالكثير من شئون الحياة، وأن المعلومات العامة بالأمور لها قيمتها.

واشتد تردده، وتعثر في سيره عندما اقترب من المحطة ووقف يتطلع إلى مبناها في وجل، وانحصر تفكيره في قطعة النقود التي معه وهل تكفي لسفره إلى جدته، وراح يتأمل القضبان الممتدة، وكادت المحطة تكون خالية. واتجه بقلب واجف إلى نافذة التذاكر، وسأل هامسًا مرتبكًا عن ثمن التذكرة، ودهش الموظف لهذا السؤال من فتى صغير، وأجابه بأن ثمن التذكرة الكاملة ستة كورونات، فألقى الفتى مغتبطًا مزهوًّا بقطعة النقود التي يعتز بها إلى الموظف وطلب التذكرة، ثم تناول ما تبقى من النقود، فشعر بأن جيبه لا يزال عامرًا، وانتظر قدوم القطار وقد انزوى في ركن بالمحطة، وكان على الرصيف بعض الأشخاص ينتظرون القطار مثله، ظن الفتى أنهم يرمقونه بنظراتهم، وبدا

لهم أنهم يدهشون لسفر فتى صغير مثله بمفرده، بل لقد خيَّل إليه أن ذنبه يشي به.

وتنفس الصعداء حين سمع صوت القطار يقترب، وتبين بعد أن ركب أن تذكرته بالدرجة الثالثة، وقد كان يركب في أسفاره مع أبويه في الدرجة الأولى، فعرف أن الناس طبقات وأن البعض يمتازون عن البعض الآخر، وكان لا يفطن إلى ذلك قبل الآن، وجلس أمامه عمال أصواتهم خشنة ويمسكون فئوسًا، ارتسم التجهم في عيونهم. ولابد أن أعمالهم أضنتهم، فقد استسلم بعضهم للنوم، وأدرك الفتى أنهم يكدون من أجل الحصول على المال، كما أدرك أن في الحياة طبقات مترفة كالطبقة التي يعيش في محيطها، ومستويات أخرى زاخرة بالآلام والمشاق.

وألقى الفتى بصره خلال النافذة فامتلأ إعجابًا بجمال الطبيعة وإبداع الكون. وعلى الرغم من أنه استشعر الخوف لهروبه على هذه الصورة، فإنه أحس في الوقت نفسه باستقلال ذاته وبالاعتداد بنفسه وبأنه أقدم على عمل واقعي بإرادته.

وحز في نفسه أنه ربما غدا مبعث حيرة وقلق لأبويه، فراح ينظر إلى الدنيا بعين تكشف عنها الغموض الذي كان يحجب عنه مغاليق الأمور قبل اليوم، وخيِّل إليه أنه أصبح يدرك طبيعة الأشياء وكنهها وحوافزها. ولاحت له المنازل كأنها أسراب حمام طائرة لفرط سرعة

القطار، واتجه بفكره إلى ساكنيها، وراح يتساءل: أهم في رغد من العيش أم مدقعون؟ سعداء أم تحت وطأة الشقاء يرزحون؟ أتراهم مثله يتوقون إلى تذوق منابع المعرفة.. المعرفة بكل شيء؟ وهل أطفالهم لا يحفلون بغير اللهو واللعب، كما كان هو من قبل؟ وأدرك أن كل من يراه يعمل في الحياة ويكدح إنما يفعل ذلك من أجل العيش وتنازع البقاء.

وضاعف القطار من سرعته وهو يتجه إلى الوادي، مخلفًا ورائه منطقة الجبال التي أخذت تتوارى، فرأى السهل المنبسط، ثم التفت مرة أخرى إلى الجبال التي أخذت تتضاءل أمام ناظريه لبعدها، فغدت كضباب يتأرجح، أو ما يشبه الظلال المتراقصة، وعندئذ خيِّل إليه أنه أودع طفولته فيها، تلك التي أخذت تتلاشى شيئًا فشيئًا أمام عينيه!

وأخيرًا وصل القطار إلى بادن، وغشيت إدجار سحابة من الكآبة عندما وجد نفسه وحيدًا على رصيف المحطة الذي غمرته الأضواء مختلفة الألوان، وفطن إلى أن الليل قد أقبل، لقد كان يستشعر الطمأنينة في النهار الزاخر بالناس وجلبتهم، تسري عنه رؤيتهم في غدوهم ورواحهم، أما الآن فكيف يكون حاله وسط هذا الظلام والفراغ، فقد آوى الناس إلى بيوتهم، وأحس بعزلة اشتدت وطأتها على نفسه، وشعر بأنه شريد هائم تلاحقه جريرته. فعقد العزم على أن يلجأ إلى مكان يأويه ويقيه شر بيئة غريبة عنه، وانطلق متجهًا إلى منزل

جدته، عبر الطريق الذي يعرفه. ويقوم المنزل في بقعة جميلة، تلفه أشجار حديقته، وقد لاح خلال تلك الأشجار كأنه شعلة، من لهب بسقفه الأحمر، وتطلع الفتى خلال سياج الحديقة، فوجد السكون يشمل المكان، حتى النوافذ كانت مغلقة، وحدس أن هذه حال الواجهة، وأن سكانه في الجانب الآخر، ووضع يده على مزلاج الباب، واستشعر عندئذ إحساسًا غريبًا: كيف يواجه جدته وكان يظن أن مواجهتها أمر عادي لا غرابة فيه، وكيف يجيب عن أسئلتها ويتقبل نظرات الدهشة التي ستجابهه بها حين يجهر لها بفراره، وكيف يبرر مسلكه الشنيع؟!

وفتح الباب فجأة، فارتد الفتى مذعورًا خشية أن يفاجئه أحد وأخذته الحيرة أين يذهب، ووقف هنيهة أمام متنزه البلدية الذي خيم عليه الظلام، فعنَّ له أن يستريح على أحد مقاعده ويفكر في حاله. فدلف إليه، وبدت له مصابيحه الواهنة خلال الأشجار كأنها أشباح، وأوغل في السير، وخفق قلبه إذ مر ببعض أشخاص جلسوا يتحدثون، لقد ضاع أمله في العزلة التي ينشدها. ويمم شطر الممرات المعتمة ليخلو إلى نفسه فيها، بيد أنه وجدها زاخرة بمزيج من الهمسات والضحكات والتنهدات مختلطة بحفيف الأشجار وأزيز الرياح، فعرف أن الإنسان دائب الحركة تمامًا كالطبيعة التي لا تسكن ولا تهجع، وأحس بهواجس أثارت في نفسه القلق من تلك الحياة النابضة بنشوة الربيع، فاستشعر الألم والاضطراب.

وانطوى على نفسه فوق أحد المقاعد يلفه الظلام الموحش، وراح يفكر فيما يفعله ويقوله لجدته، تاهت أفكاره واختلط عليه الأمر. ودون إرادة منه كان يستمع إلى الهمسات والتنهدات والحركات المبهمة، وبالرغم من أن الظلمة كانت تفزعه، فقد رأى فيها فتنة وسحرًا، وساءل نفسه عن مبعث ما يتناهى إلى سمعه من تنهدات، فتبين له أن أزواجًا من الناس هجروا المدينة بأضوائها،وراحوا يعيشون حياة متخفية بين طيات الليل والظلام. ترى ماذا حفزهم إلى ذلك؟ ولماذا يتكلمون همسًا ويتحركون في حذر؟ وأخذه العجب والدهشة حين كان يرى بين لحظة وأخرى أطياف هؤلاء الناس وقد تلاصق كل اثنين تمامًا كما رأى أمه مع البارون، لابد أنها جنت به ولعًا وتعلقًا، فلولا ذلك لما جنحت إلى الكذب والخداع والتمويه. إذن يكمن هنا أيضًا ذلك السر الرهيب الخفي المثير! وسرعان ما سمع خطوات تقترب وضحكات خافتة، خشي أن يلمحه أحد وتوارى بعيدًا، ولم يره القادمان اللذان ما لبثا أن وقفا بالقرب منه، فرأى وجهيهما يتلاصقان دون أن يتبين ما يحدث، بيد أنه سمع زفرة تند عن صدر المرأة، وتمتمة حارة من الرجل. فأحس الفتى بشعور غامض ملتهب أشاع رعشة في كيانه، وظل الواقفان هكذا فترة سمع بعدها وقع خطواتهما وهما يبتعدان.

وأحس الفتى بفورة عارمة في دمائه، واستبدت به رجفة حادة، وشعر بالوحدة في هذا الظلام، وبالحنين إلى صوت ناعم عطوف، وإلى

أحضان دافئة حانية، بين أناس يحبهم، وخيِّل إليه أن الليل بظلمته قد استقر في نفسه وراح يعتصر قلبه. ونهض الفتى وقد ضاقت نفسه، ماذا يمكن أن يكون؟ قد يضرب أو يعاقب أو يؤنب، إنه لم يعد يبالي منذ عرف الظلمة وذاق العزلة. وانطلق على غير هدى، فبلغ بيت جدته دون أن يعي، ووقف عند الباب، ورأى الأنوار في هذه المرة تتسلل خلال النوافذ، فتخيل أصحاب الدار وقد جلسوا في القاعة، فشعر بشيء من الاطمئنان وهدأ روعه لأنه أضحى قريبًا من أحبائه، وتردد قليلًا في دق الجرس ليستمتع بذلك الشعور!

وفجأة على حين غرة، ثقب أذنيه صوت حاد منفعل:

– أنت هنا؟ كيف جئت؟ وماذا جاء بك يا إدجار؟

لقد كان الخادم أول من رآه، فراحت تربت على كتفه، وإذ فتح الباب، اقترب منه كلب أخذ يهز ذنبه، وطالعته الأضواء من الداخل، ثم سمع أصواتًا مختلطة تشيع فيها الغبطة والدهشة، وإذ اقتربت منه الأصوات في لهفة وابتهاج، تبين جدته في المقدمة وقد بسطت له ذراعيها، وعقدت الدهشة لسانه، وكاد يكذب عينيه إذ رأى أمه من خلفها وقد اغرورقت عيناها بالدموع، فشملته رجفة من أقصى رأسه إلى أخمص قدميه، وتنازعه الوجل والحيرة، واختلط عليه الأمر، فلم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول؟ بل لم يستطع أن يدرك حقيقة إحساسه، أخوف هو أم سعادة؟!

وكانت أمه قد ارتاعت لفرار الفتى رغم حنقها عليه، فراحت تبحث عنه وقد استبد بها الانزعاج، إلى أن أقبل شخص أنهى إليها أنه رأى الغلام عند نافذة التذاكر، وبالاستعلام عرفت أنه يمم شطره بادن التي كانت الأم قد أبرقت إليها كما أبرقت إلى أبيه في فيينا بنبأ فراره، فروع ذلك الوالد وراح يتنسم أخبار ابنه، ثم رحلت الأم إلى بادن في أثر ابنها، وراح الجميع يترقبون وصوله!

وأحاطت به الأسرة وأغرقته بالملاطفة، وقد سادهم شعور بالبهجة لوصوله، ولم تطل فترة التأنيب الخفيف الذي وجهوه إليه، فلم يستشعر له وخزًا، إذ تبين مشاعر الحب تطفر من أسارير الأهل. وما لبثت جدته أن احتوته بين ذراعيها وهي تجهش بالبكاء، ولم يعد أحد يسيء إليه بكلمة تقريع أو يشير إلى خطئه، وازدادت رعايتهم له وحدبهم عليه، وبدلت له الخادم ثيابه، وراحت جدته تسأله عما يشتهي وعما إذا كان جائعًا، وتغمره بفيض حنانها.

وإذ فطنوا إلى إعيائه، تركوه وشأنه كي يستجم، فاستشعر الغبطة إذ عاوده الإحساس بأنه ما زال صغيرًا، وكان قبل ذلك يضيق بهذا الشعور، وتمنى أن يتعدى طور الطفولة، فإذا به يستمرئه الآن ويستعذبه، ويندم على ما تولاه من كبرياء وصلف!

وانبعث رنين التليفون، وسمع إدجار أمه تردد في كلمات متقطعة:

– نعم.. إدجار وصل إلى هنا سالمًا.. في آخر قطار.

وحير الفتى وأدهشه أن أمه لم تبد نحوه جفوة أو قسوة، بل راحت تغمره بنظرات هادئة، فشعر بالندم في نفسه، وود لو قوبل بعكس ذلك، ليسعى إلى أمه يسألها الصفح والغفران ويؤكد لها أنه سيطيع أوامرها، سمع جدته تسأله في خوف وهو ينهض:

– إلى أين؟!

فتسمر في مكانه وقد عراه الخجل، إذ رآهم يتوجسون من كل حركة تبدر منه، ولعلهم كانوا يخشون أن يهرب مرة ثانية وما دروا أنه أشد منهم ندمًا على ذلك الهرب!

وعلى المائدة، قدم إليه عشاء خفيف، وكانت جدته لا تحول عنه نظرها، بينما جلست خالته إلى جواره، وأحس بالاطمئنان إزاء هذا العطف الذي غمروه به، ولكن أقلقه أن أمه ليست بجانبه، وتمنى لو أنها عرفت مبلغ ندمه.

وتناهى إلى سمعه صوت عربة تقف أمام الباب، فاستولى على الأهل ذهول أزعج الفتى، وغادرت جدته الغرفة، ثم سمع حديثًا يجري، أدرك منه أن أباه قد وصل، وإذ رأى أباه، فهو الوحيد الذي يهابه ويخشى بأسه، فأرهف السمع، وبدا له الأب محنقًا، ينم عن ذلك انفعاله وارتفاع صوته، وسمع جدته وأمه تهدئان من حنقه، بيد أن ثائرته لم تهدأ وظل على انفعاله، وأخذت خطى أبيه تقترب حتى بلغت الباب الذي ما لبث أن فتح، وتراءت للفتى الصغير نفسه ضئيلة إلى

جانب أبيه البدين الذي دلف إلى الحجرة بخطى تنم عن حنق وغضب، وصاح الأب:

– ماذا أصابك يا بني؟ بل ماذا دهاك حتى تهرب على هذا النحو المزري، وتسبب لأمك هذا الانزعاج الفظيع؟

ألقى الأب بهذا السؤال في انفعال بالغ، ويداه ترتجفان في عنف، بينما دخلت أمه في هدوء ورفق وقد شحب وجهها، وانعقد لسان الفتى فلم ينبس بكلمة. إنه يدرك تمامًا أن المطلوب منه أن يبرر مسلكه وهربه ولكن أنَّى له أن يفصح عن أساليب الخداع والكذب التي اتبعتها معه أمه وضروب القسوة التي عاملته بها؟ ترى هل يدرك أبوه الموقف ويفهم الأمر؟ وأردف أبوه يقول:

– ماذا جرى؟ لماذا فررت بهذه الصورة؟

وحالت شجون إدجار دون انطلاق لسانه، حتى إذا واتته القدرة على الكلام أومأت إليه أمه من خلف ظهر أبيه ألا يقول شيئًا، واهتز كيانه كله إذ شعر أن أمه تأتمنه وتثق برجولته فقرر أن يكون عند حسن ظنها، واستعاد رباطة جأشه وقال:

– ليس هناك شيء إطلاقًا، وكل ما هناك أنه صدر مني ما لا يليق، وخشيت أن تعنفني والدتي فلذت بالفرار.

وسُري عن أبيه، وظهر الرضا على قسمات وجهه، وقال:

– إن من يشعر بذنبه يكفر بهذا الشعور عن خطئه، وهذه آية على اكتمال العقل وعلى أنك تجاوزت طور الطفولة!

وشخصت عينا الفتى نحو عيني أمه، فرآهما تغرورقان بالدموع، والابتسامة تختلج على شفتيها وكأنها تسجل له شكرها.

وعندما حان موعد نومه، وذهب إلى فراشه، رحب بتلك الخلوة كي يراجع انفعالات ذلك النهار، فوجد لاسترجاعها لذة أشعرته بانتقاله فجأة من صفوف الصغار إلى صفوف الكبار؛ لأن الحياة كشفت له عن نقابها فرآها على وجهها الحقيقي غير مزوقة بخيالات الطفولة وسذاجتها، وانتابته من ذلك رهبة، وقد بدأ يتبين ما ينتظره في ممارسة الحياة من انفعالات عميقة.

وكأنما أرضاه هذه الإحساس، فغطى في نفسه المتفتحة على مشاعر الحقد والكراهية. حتى لقد خامره نحو البارون إحساس بالامتنان؛ لأنه كان المفتاح الذي فتح له باب الحياة الحقيقية الواعية على مصراعيه!

وأخذ الكرى يداعب أجفانه المثقلة، وهو يقلب تلك الخواطر والأفكار، فلم يستطع أن يتبين بوضوح من هو الشبح الصامت الذي تسلل إلى مخدعه في الظلام، وإن أحس بأنفاسه المعطرة وشعره الناعم وخده الدافئ يلتصق بوجهه. كان يعلم في أعماقه أن أمه جاءت تغمره بحنانها، وتشكره على موقفه النبيل منها.

وكانت هذه اللمسات الحانية مصدر سعادة كبرى وطمأنينة قلب لإدجار، فأحس عندما غادرت أمه الغرفة مخلفة وراءها شذى عطرها أن آلامه جميعًا قد تلاشت، وأن الحياة قد أعطته أجمل تعويض عن كل ما تحمله من آلام، وجادت عليه بسر كنزها الأعظم، كنز الحب، ولو بلغ ذلك الحب درجة الجنون!

الفهرس